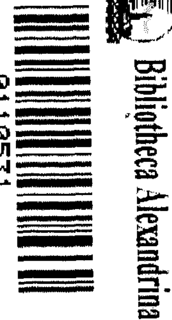
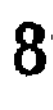
عبد العزيز البشرى

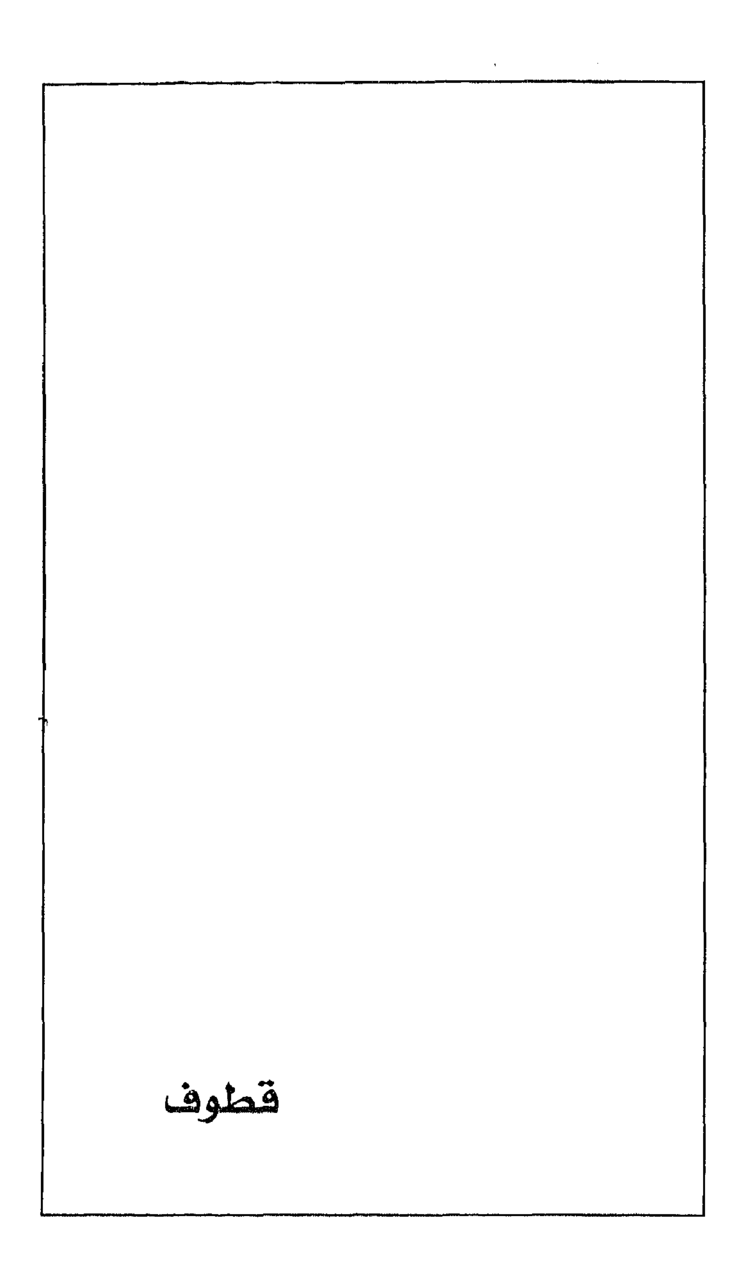
قطوف

مقدمة: د. طه حسين

الأعمال الفكرية







قطوف

طبعة خاصة من مكتبة الخانجى
لمكتبة الأســرة
بالإشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع
٩٨/٨٢٣٥
I.S.B.N. 977 - 01 - 5749 - 2

قطوف

عبدالعزيز البشرى

تقديم: د. طه حسين



مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الفكرية)

قطوف

عبدالعزيز البشرى

تقديم: د. طه حسين

الغلاف

الإشراف الفنى:

للفنان محمود الهندى

المشرف العام

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

مقدمة

ومازال نهر العطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جيلاً بعد جيل - ومازلنا نتشبث بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

شبّت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبة الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضىء النفوس ويثرى الوجدان بكتاب فى متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية وتعتمدها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتذى فى كل العالم الثالث، ومازلت أحلم بالمزيد من لآلىء الإبداع الفكرى والأدبى والعلمى تترسخ فى وجدان أهلى وعشيرتى أبناء وطنى مصر المحروسة، مصر الفن، مصر التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزان مبارك

على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التنويرية وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضارى المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلعتنا الحصينة وسلاحنا الماضى فى مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د. سمير سرحان

عبدالعزيز البشري



١

مقدمة لطه حسين

مقـــــدمة

أما أهله الأقربون وذوو مودته من الأصدقاء والخـلان ، فيذكرونه كما كانت الخنساء تذكر صخراً أخاها ، وتذوب أنفسهم حسرات كلما ذكروه ، حتى يكاد الحزن ينتهى بهم إلى اليأس ، كما كانت الخنساء تلقى وتشقى كلما ذكرت أخاها صخراً ، وكما صورت الخنساء ذلك أحسن تصوير وأبعده أثراً فى النفوس وأشده وقعاً فى القلوب حين قالت :

يذكرنى طلوع الشمس صخراً   وأذكره لـكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولى   على إخوانهم لقتلت نفسى
وما يبكون مثل أخى ولـكن   أسـلى النفس عنه بالتأسى

وصنع الله لأهله الذين يذكرونه حين تطلع الشمس وحين تزول وحين تهوى إلى مغربها ، ولأصدقائه الذين يذكرونه فى تلك الساعات التى كانوا يلقونه فيها ، فى ساعات العمل وجه النهار ، وفى ساعات الفراغ من آخر النهار ، وفى تلك الساعات الحلوة من أول الليل حين يتخفف الناس من أعمال النهار وأثقاله ، وحين يرسلون أنفسهم على سجيتها ، فتفرح وتمرح ، وتعبث وتمزح ،

وتخوض فى كل فن من فنون القول ، وبجول فى كل ميدان من ميادين التفكير .

فقد كان عبد العزيز رحمه الله أباً براً ، وأخا وفيا ، وصديقا حميما . وكان من أجل هذا كله محببا إلى النفوس ، أثيراً فى القلوب ، عزيزاً على الأهل والأصدقاء جميعا .

والشمس تشرق وتغرب فى كل يوم ، والليل يغمر الكون وينجلى عنه فى كل يوم أيضاً ، وفى اختلاف الليل والنهار وفى تتابع الأيام والأشهر والسنين ما يجلو عن النفوس غمراتها ، ويفرج عن القلوب حسراتها ، ويعزّى الأحياء عن الأموات ، وينسى الأحياء بعضهم بعضا . ولكنى أعتقد أن اختلاف الليل والنهار ، وتتابع الأيام والأشهر والسنين ، وتعاقب الأحداث الجسام والخطوب العظام ، واشتغال الناس بما يسرهم وما يسوءهم من شؤون الحياة — كل ذلك وأكثر من ذلك ليس من شأنه أن يعزى عن عبد العزيز أهله الأقربين وذوى مودته من الأصدقاء والأخلاء . فقد كان عبد العزيز رحمه الله من هذه القلة القليلة النادرة التى امتازت بخفة الروح وعذوبة النفس ورقة الشمائل ، والتى ظفرت من هذه الخصال بحظ غريب فى طبعه وفى جوهره ومادته ، إن صح هذا التعبير ، بحيث لا يبلو الانسان أمره إلا كلف به أشد الكلف وافتتن به أشد الافتنان ، وأصبح لا يستطيع له نسيانا ، ولا يجد عنه سلوا مهما يلم به من الخطوب ، ومهما يختلف عليه من الظروف .

وقد عرفت أنا من هذا الطراز قلة قليلة استأثر الله ببعضها ،

وأرجو أن يطيل الله بقاء بعضها الآخر . ومن هذه القلة التي آثرها الله بجواره الكريم ثلاثة نفر كانوا أخلاء فيما بينهم ، وكانوا أصدقاء لكل من عرفهم أو اتصلت به أسبابهم من الناس . وهؤلاء الثلاثة هم : شاعر النيل حافظ إبراهيم ، وكاتب النيل عبد العزيز البشرى ، وطبيب النيل على إبراهيم . كلهم كان عذب النفس ، حلو الروح ، كريم السجية ، مهذب الطبع ، مترف الذوق ، مرهف الحس ، رقيق الشمائل . وهم من أجل ذلك كانوا متوادّين متحابين ، لا يفترقون إلا ليلتقوا . ولولا أن خطوب الحياة كانت تفرقهم على كره منهم لما آثروا على اجتماع شملهم شيئا . وكانوا على ذلك أصدقاء للناس جميعا ، لا يعرفون البغض ولا تطمئن نفوسهم إليه ؛ لأن نفوسهم خلقت من معدن الحب وفطرت على سجية الاخاء والوفاء وحسن المعاشرة . ولذلك لا أعرف أحداً من الذين عرفوا هؤلاء الثلاثة — وما أكثر من عرفهم ووصل أسبابه بأسبابهم — قد تعلّق على واحد منهم بكلمة مؤذية أو خطة مؤلمة أو عمل يحزن أو يسوء . وإنما نحن نذكرهم جميعا فيمزق الأسى قلوبنا ، وتفرق اللوعة نفوسنا . ولا نكاد نذكرهم مجتمعين أو متفرقين حتى يأخذنا الشجا لفقدهم ، وتبتسم نفوسنا الباكية لما نذكر من أعمالهم وأقوالهم ؛ فهم كانوا ابتساما على ثغر الحياة فى مصر مهما يكن حظ الحياة فى مصر من العبوس والحرج ومن النكر والضيق . وهم كانوا كغيرهم من الناس يحسنون ويسيئون ، ولكنهم لم يسيئوا عمدا للاساءة قط ، ولم يسيئوا إلا كانت إساءتهم مهما تقس فى أول

أسرها مصدر رضا وغبطة وفكاهة ودعابة بعد وقت يقصر أو يطول .

وكلهم نفع الناس فى حياته كأحسن ما يستطيع الانسان أن ينفع الانسان . وكلهم وجد فى نفع الناس لذة ومتاعا ، ولم يحفل بما جنى الناس عليه ولا بما جرعوه من فنون الألم وضروب الشقاء . كانوا لا يغضبون إلا ليرضوا ، ولا يبتئسون إلا ليبتهجوا ، ولا يعبسون إلا ليبسموا . فطرت نفوسهم على التفاؤل ، أو خلقت نفوسهم من التفاؤل ؛ فلم يعرف التشاؤم اليها سبيلا ، ولم يلق الناس منهم إلا خيرا .

كان حافظ يمتع الناس ويحيى نفوسهم بشعره الرائع . وكان على إبراهيم ينفع الناس ويحيى نفوسهم وأجسامهم بفنه البارع وعلمه الواسع وتفوقه الرفيع . وكان عبد العزيز يسحر قلوب الناس ويستهوى ألبابهم ، ويملك عليهم أسرهم ، وينسيهم صروف الحياة ، ويعزيهم عن آلامها بمحضره دون أن يتكلم . فاذا تكلم فقد كان يرقى بهم من عالم إلى عالم وينقلهم من حياة الى حياة . فاذا كتب ونشر فقد كان يأخذ عليهم سبل الاعجاب ، ويضطرهم إلى أن يقرءوا ويقرءوا منفردين قد خلوا إليه دون غيره من الناس . فاذا لقى بعضهم بعضا تحدثوا عما قرءوا ثم أعادوا القراءة ، ثم أخذوا يذهبون من الاعجاب بما يقرءون كل مذهب ، يسلكون من هذا الاعجاب سبل الجد وسبل الفكاهة ، وربما شغلوا أنفسهم بذكر عبد العزيز فى مجلسهم كله حتى يتفرقوا ولم يقضوا منه العجب .

أما أهله الأقربون وذوو مودته من الأصدقاء والخلان، فيذكرونه

مصبحين ويذكرونه ممسين ، لا ينسونه ولا يتعزون عنه ، فليس إلى نسيانه أو إلى التعزى عنه سبيل . وأما هذه الكثرة الكثيرة من المثقفين الذين لم يلقوه ولم يستمتعوا بمحضره ، ولم يقولوا له ولم يسمعوا منه ، ولم ينعموا بفكاهته الحلوة ودعابته الرائقة ونادرته الحاضرة ، وإنما سمعوا عنه من بعيد أو قرءوا له بين حين وحين ، فان أمرهم معه كأمرهم مع غيره من الكتاب والشعراء والعلماء ، يستمتعون حين يتاح لهم المتاع ، ويرضون عما استمتعوا به عجلين ، ثم ينصرفون إلى غيره عجلين أيضا ، يطلبون اليهم كثيرا أكثر مما يطيقون ، ولا يعطونهم من أنفسهم إلا قليلا أقل مما يستطيعون .

إن المثقفين جميعا يؤمنون بأن حافظا كان شاعرا فحلا ، وبأن عبد العزيز كان كاتبا ممتازا ، وبأن على إبراهيم كان جراحا متفوقا . قد أقروا ذلك فى أنفسهم ، وسجلوه فى قلوبهم ، وآمنوا به عن علم أو عن غير علم ، ثم لم يزيدوا على ذلك . فكم عدد الذين يطيلون القراءة فيما نظم حافظ ، وما كتب عبد العزيز ، ويطيلون التفكير فيما امتاز به على إبراهيم !

لم يمض ربع قرن على وفاة حافظ ، والناس يعدونه الآن شاعرا من الشعراء البارعين كما يعدون الشعراء القدماء . ولم تمض إلا أعوام قليلة على وفاة عبد العزيز ، والناس يعدونه كاتبا مجيدا كما يعدون غيره من الكتاب القدماء . ولم يدر العام بعد على وفاة على إبراهيم والناس يؤمنون له بالتفوق فى الجراحة والطب ثم لا يزيدون على ذلك شيئا .

وقد يكون هذا ملائما لطبيعة الأشياء ؛ فالموت يلغى الزمن بالقياس إلى الموتى . ومن مات مات . وأفهم من هذه الجملة ما تستطيع أن تفهم . مات بالقياس إلى نفسه ، ومات بالقياس إلى أكثر الناس ، وربما مات إلى أشد الناس اتصالا به وقربا منه . مات ولم تبق منه إلا هذه الذكرى التى تظل مضطربة متأججة فى بعض القلوب حتى تخمد حين تكف هذه القلوب عن الخفقان ، وتظل فى سائر القلوب أشبه شىء بهذه الأسماء التى تكتب على اللافتات ، ينظر الناس إليها أحيانا ، ويمرون بها معرضين عنها فى أكثر الأحيان . لا يتعمدون النظر إليها إلا إن احتاجوا إليها ليستعينوا بها على التماس ما يبتغون من طريق . فالذين يؤرخون الأدب الحديث سيتعمدون تذكر حافظ وعبد العزيز وإطالة التفكير فيهما . والذين يؤرخون الجراحة الحديثة سيتعمدون تذكر على إبراهيم وإطالة الوقوف عنده . وأولئك وهؤلاء سيقفون عند هؤلاء الأشخاص كما يقف المتجول فى مدينة القاهرة عند هذه اللافتة أو تلك ليتبين طريقه إلى الغاية التى يريد أن يصل إليها .

ولست أدرى أخير هذا أم شر ، ولكنى أعلم أنه الحقيقة الواقعة من جهة ، وأكاد أعتقد أنه العقوق ، وأن هذا النوع من العقوق قد ركب فى طبائع الناس ، فهم يسرعون إلى نسيان من أحسن إليهم ، وهم يضيعون على أنفسهم بهذا النسيان منافع كثيرة ومتاعاً عظيما . وآية ذلك أنك تقرأ الأثر القديم الذى مضت عليه القرون الطوال من آثار الأدباء والعلماء ، فتجد اللذة كل اللذة

والنعيم كل النعيم ، وترثى للذين لم يقرءوا هذا الأثر من هذه الأجيال التى لا تحصى ؛ لأنهم لم يقرءوه ولم يستمتعوا به . فالذين لا يقرءون اليوم حافظا ولا عبد العزيز قد دفعوا إلى هذا العقوق الذى ركب فى طبيعة الناس ، فأضاعوا على أنفسهم شيئا كثيرا ، ما أجدرهم ، لو أحسنوا التفكير والتقدير ، أن يستدركوه ولا يفرطوا فيه .

وقد كنت من المفتونين بحديث عبد العزيز حين يتحدث ، ومن المفتونين بآثاره حين يكتب . وقد توسلت إليه حين أزمع نشر « المختار » أن يأذن لى بتقديمه إلى الناس . وشهد الله ما تكلفت ولا تزيّدت ، وشهد الله ما جاملت وما صانعت ، وإنما علمت فقلت بعض ما علمت ، ورضيت فقلت أيسر ما يوجبه الرضا .

وإنى لأرانى مع عبد العزيز فى تلك الغرفة التى كان صديقنا على عبد الرازق قد استأجرها فى ربع من ربوع خان الخليلى ، وكنا نلتقى فيها حين نتفرق عن دروس الفقه وحين يرتفع الضحى لنقرأ بعض كتب الأصول أو بعض كتب البلاغة . وكان عبد العزيز يلهينا بدعابته وفكاهته عن جد البلاغة والأصول . ثم لم يلبث أن ضاق بهذا الجد فانسل منه كما تنسل الشعرة من العجين ، ودون أن يلقى كيدا . وأقمنا نحن على هذا الجد ننفق فيه حياتنا ، ونزعم لأنفسنا أننا كنا نغذو به العقول والقلوب . وإنى لأرانى مع عبد العزيز وعلى عبد الرازق فى هذه الغرفة نفسها بعد أن تصلّى العصر ، نقرأ معا كتاب الكامل للمبرد ، نحصّل بهذه القراءة الأدب كما كنا نحصل البلاغة والأصول بقراءة الضحى . وكان مزاح عبد العزيز

وتندره يصرفاننا عن هـذا التحصيل كما كانا يصرفاننا عن ذاك . ثم لم يلبث أن انسل من هذا التحصيل كما تنسل الشعرة من العجين ودون أن يلقى كيدا . ذلك لأنه ، رحمه الله ، كان أقل الناس حبا للاستقرار وميلا إلى الامعان فى طريق واحدة . فطر على حب التنقل ، على حب التنقل المادى والمعنوى جميعا . فكنت تراه مصبحا فى هذا الحى من أحياء القاهرة فى الأزهر أو قريبا منه ، فاذا صليت الظهر رأيته فى حى آخر من أحياء القاهرة ملما بدار الكتب أو قريبا منها فى قهوة من قهوات باب الخلق . فاذا صليت العصر رأيته فى حى آخر من أحياء القاهرة فى قهوة من هـذه القهوات التى كان الأدباء يختلفون إليها فى حى الأزبكية . فاذا صليت العشاء الآخرة رأيته فى غير حى من أحياء القاهرة ، تلقاه عند آل عبد الرازق فى عابدين ، وتلقاه عند غيرهم من ذوى المكانة والجاه ، وقد تلقاه فى قهوة من قهوات الناصرية مع جماعة من الأدباء صدرهم حافظ إبراهيم رحمه الله . كل ذلك حين كنا طلاباً قبل أن تشب الحرب العالمية الأولى ، وقبل أن تتغير الدنيا ويتحضر هذا الجيل من أجيال المصريين بعد انقضاء الحرب الأولى وشبوب الثورة الوطنية واشتجار الخلاف بين السعديين والعدليين ، وانتقال مركز النشاط لهذا الجيل إلى مكان آخر من مدينة القاهرة . فكنت ترى عبد العزيز فى ذلك الوقت فى « بار اللواء » أثناء الأصيل ، وفى « الكافيه ريش » حين يقبل الليل ، وفى الأهرام أو غير الأهرام من دور الصحف حين يتقدم الليل . وربما رأيته أثناء النهار

أو أثناء الليل عند هذا العظيم أو ذاك من عظماء العدليين .

ثم تتغير الدنيا مرة أخرى ويأتلف المختلفون ويتفق المختصمون ، فاذا عبد العزيز يغشى مجالس السعديين وأنديتهم كما كان يغشى مجالس العدليين وأنديتهم . ولكنه على كل هذا التنقل وعلى كل هذا الاضطراب بين أحياء القاهرة كان يثبت على مكان واحد يختلف إليه مهما تكن الظروف والأحداث ليلقى فيه على إبراهيم وأصحابه ساعة من ليل .

وفطرت نفسه على حب التنقل المعنوى ، فكان يشارك فى علوم الأزهر طائعاً أو كارهاً . وماذا يصنع وهو ابن شيخ الاسلام وقد سلكه أبوه رحمه الله مع الأزهريين فى نظام واحد وكان يشارك فى أدب القدماء وفى أدب المحدثين ، وكان يلم بالأدب الأجنبى إلماماً قصيراً من بعيد . وكان يحاول أن يتعلم اللغة الفرنسية ويعرف منها أطرافا ويتندر بها فى حديثه العذب . وكان قد أدمن قراءة « الأغانى » ، ففصح لسانه إلى أبعد غاية من غايات الفصاحة ، وآثر فى حديثه جزالة اللفظ ، وأعانه صوته المتين المليء على التضخيم والتفخيم والترصين . وكان من أروع ما يروعك حين تسمع إليه متحدثا بلغة الجاحظ وأبى الفرج أن تستخفك اللفظة الفرنسية قد انزلقت بين هذا الكلام العربى الرصين المتين من حيث لا تدرى أنت ولا يدرى هو .

ثم يريد الله أن تعدو العوادى ، وأن تدلهم الخطوب ، وأن نفقد عبد العزيز على غير توقع لفقده ، وإذا نحن نحرم هذا المتاع الغريب النادر الذى كنا نجده حين نتحدث إليه ونستمع له ،

وإذا نحن مضطرون إلى أن نستحضر حديثه بقراءة ما ترك لنا من الآثار ، نقرأ ويخيل إلينا أننا نسمعه يتحدث ، فنجد فى ذلك مزاجا غريبا من اللذة الأليمة والسرور الحزين .

ثم يتحدث إلىّ أحد أصدقائى ذات يوم بأن لعبد العزيز آثاراً لم تجمع فى كتاب ، نشر بعضها فى المجلات وأذيع بعضها فى « الراديو » وأعد بعضها للنشر أو للاذاعة ، وكان عبد العزيز يهيئها كلها لتجمع فى سفر أو سفرين ، فأعجله الموت عن ذلك . فلا أكاد أسمع هذا النبأ حتى أُلح على صديقى فى أن يصل الأسباب بينى وبين هذه القطوف ، فيتاح لى ذلك . فلا أقرأ ولا أستقصى ، وإنما أزمع نشر هذه الفصول وفاءً بما لهذا الأديب العظيم من حق ، ورعايةً لما لهذا الصديق الكريم من حرمة .

لا أقرأ ولا أستقصى إجلالا لآثار عبد العزيز أن تقرأ أو تستقصى قبل أن تقدم إلى المطبعة ؛ فقد كان راضيا عنها ، وهذا يكفى . ثم تطبع هذه القطوف وترسل إلىّ فى فرنسا ، فأخلو إليها فى هذه القرية النائية من قرى الجبل أياما ، فلا أشك فى أنى لم أخطىء حين وثقت برأى عبد العزيز فى قطوفه ؛ فهى الأدب كل الأدب ، وهى الفن كل الفن ، وهى الكلام الذى يجمع إلى رصانة الأدب القديم وجزالته خصب الأدب الحديث وثروته . وهى على ذلك كله إذا ضمت إلى ما جمع من آثار عبد العزيز صورة فذة لا نظير لها فى الأدب المعاصر . فهى فصل مستقل من تاريخنا الأدبى يصوّر لوناً من ألوان هذا التاريخ لا نجده عند كاتب آخر

من كتابنا المعاصرين ، لا أكاد أستثنى منهم إلا صديقنا المازنى .

فعبد العزيز أشد كتابنا المعاصرين عكوفا على حياتنا المصرية ، وعلى حياة القاهرة خاصة ، وعلى حياة الطبقة الوسطى من أهل القاهرة بنوع أخص . وهو أشد كتابنا نفوذاً إلى دقائق هذه الحياة وسرائرها ، وأشدهم تمثلا لخلاصتها ، قد خالطت نفسه ، ومازجت دمه ، وانطلقت على لسانه حين كان يتحدث ، وجرت مع قلمه حين كان يكتب . فهى أصدق مرآة وأصفاها للحياة المصرية فى عصر الانتقال . وقد كان عبد العزيز رحمه الله يحب أن يصور المعاصرين ويجلو صورهم فى فصول رائعة كانت تنشر بعنوان « فى المرآة » ثم جمعت بعد ذلك فى سفر أرجو ألا يكون قد انقطع من أيدى الناس .

فاقرأ «قطوفه» هذه ، فسترى فى كل فصل من فصولها مرآة مصقولة صافية صادقة أدق الصدق ، لا تعكس صورة فرد من الأفراد ، وإنما تعكس صورة بيئة من البيئات ، أو جماعة من الجماعات ، أو لون من ألوان التفكير المصرى ، أو فن من فنون السيرة المصرية فى هذا الطور أو ذاك من أطوار الحياة . فاذا فرغت من قراءة هذه «القطوف» فقد استقرت فى نفسك صورة كاملة شاملة دقيقة لحياة مصرية ذهب أكثرها وبقى أقلها ، ولحياة مصرية جديدة ناشئة لم يتم تكوينها بعد ، ولكن عبد العزيز سبق بذكائه النافذ وملاحظته الدقيقة إلى التنبؤ بحقائقها وبما سيختلف عليها من الأطوار .

وكنت أقدر أن رعاية حرمة الأدب والوفاء بحق الصديق هما اللذان قد دفعانى إلى نشر هذا السفر ، فاذا أنا أقرأ ثم لا أشك

فى أنى قد أهديت بنشره طرفة من أقوم الطرف وأشدها إمتاعا إلى المثقفين من قراء العربية عامة وإلى الشباب منهم خاصة . فما أعرف أن كاتباً من الكتاب المعاصرين أتيح له من التوفيق مثل ما أتيح لعبد العزيز فى هذه الفصول التى تسجل من حياتنا ما كاد يضيع ، وتسجله فى أروع لفظ وأبرعه وأجزله وأمثله . وما أشك فى أن كثيراً من هذه القطوف لو ترجم إلى بعض اللغات الأوربية لفتن به كثير من أهل الغرب فتونا .

ولو علمت أنى أستطيع أن أشير على وزارة المعارف فتسمع منى وتقبل مشورتى لأشرت عليها فى أن تجعل كتب عبد العزيز البشرى ، وهذا الكتاب منها خاصة ، بين الكتب التى تدرس فى المدارس الثانوية ؛ فما أعرف أقدر منه على تحبيب الأدب العربى إلى الشباب وتزيينه فى قلوبهم ، وإقناعهم بأن لغتنا الفصيحة القديمة تستطيع أن تؤدى من المعانى والأغراض ما تقتضيه الحياة الحديثة دون أن يمسها من ذلك نصب أو لغوب .

رحم الله عبد العزيز ، وهيأ للأدب العربى من يقوم مقامه . ولولا الثقة بالله لقلت كما قال الحجاف فى العصر القديم: « وما أراه يفعل » . ولكن قدرة الله وسعت كل شئ ، ورحمته وسعت كل إنسان ؛ فليعوض الله من عبد العزيز خيراً ، وليسبغ الله على عبد العزيز رحمة ونعمه وثوابا .

ط حسين

ميرولس — يوليو ١٩٤٧

أيام فى الريف

لقد طال عهدنا بالريف حتى كاد ينكرنا وحتى كدنا ننكره . ولست أزعم أننى ولدت فى الريف ، أو أننى نشأت فيه . على أننى كنت أكثر من انتيابه والعيش فيه كلما تهيأ لى انتيابه والعيش فيه . ولكن الدهر الماكر قد قطع السبب إليه ، فحرمنى غشيانه سنين عددا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !

وإذا نحن قلنا الريف ، قلنا الطبيعة ، أو أدنى الأشياء إلى الطبيعة والطبيعة ، مهما يكن لون حياتنا ، هى مصدرنا ، وهى اللاصقة بخلقنا ، وإذا رددنا ساعة إلى نفوسنا ، لم نجد غير الطبيعة بين أيدينا وعن الايمان والشمائل جميعاً . ولقد يبعد بنا طول العيش فى المدن ، ولقد يمعن بنا فى شتى السبل ، حتى ننسى الطبيعة أو نكاد ننساها ، ويرجح الظن بأنه قد انحسم بيننا وبينها كل سبب ، وانقطعت جميع وشائج الرحم ، ولا نزال منها على هذا ، ولا تزال منا على ذاك ، إلى أن نغشى الريف ، فاذا السبب موصول ، وإذا الرحم مابرحت واشجة ، وإذا العطف يعتلج فى الصدور ، وإذا الحنان يترقرق فى النفوس ، وإذا لهوات القلوب تنفتح ، فلو أمكن لها لحست هذه الطبيعة حسواً .

عبد العزيز البشرى

وهل كان عجباً أن يحس المرء أبلغ الغبطة والأنس ، إذا آب إلى أمه الحنانة الرءوم بعد طول النوى ، مهما يكن قد ضرب فى الأرضين ، وتقلب فى شتى الأقطار ، وعايش أصناف الخلق ، وتوسم مختلف الوجوه ، وهفا قلبه إلى من هفا من الناس ؟

اللهم إن عيش الطبيعة هو الموصول بفطرنا ، واللاصق بطباعنا لأننا ، كما قلت ، عنها صدرنا . فاذا أحال المقام فى المدن أساليب عيشنا ، ولون فى فنون حياتنا ، وأوال لنا صوراً من صور ، وأبدل مناهج متعنا بمناهج أخر فان شيئاً من هذا لم يقطع ما بيننا وبين الطبيعة ، ولم يخرجنا منها أو ينزعها منا ، وإنما يشغلنا عنها . فاذا نحن طالعناها لم يزل شأننا على الحالم إذا استيقظ ، والغريب إذا آب واستقر به القرار بين الأهل والصحاب !

وكذلك كنت من الطبيعة حين هبطت الريف ، وامتد بصرى فى الآفاق ، وأحاط بى الزرع والماء . وما كدت أسلخ بضع ساعات حتى استشعرت أنساً كأننى كنت فى وحشة . ووجدت من الألف ما يجد الآئب من الغربة . ومالى لا أجد هذا وأستشعر هذا ، وقد رجعت إلى أصلى ونزعت إلى طبعى ، وخلعت عن نفسى كل كلفة ، واستلختها من كل ما غرست من تصنع استكرهت عليه مناهج تلك الحياة . وما أجدر الطبيعة بأن تقهر الصنعة وإن طال بها الزمان !

هذه سماء كبيرة بعيدة الآثار ، وهذه أرض مبسوطة تشقها الأنهر والترع ، وتنعطف فيها الجعافر والخلجان ؛ وقد لبست حلتها الخضراء فأصبحت نهياً للعيون من حسن وجمال .

ولقد أحسن ، كدأبه ، كل الاحسان المغفور له الملك فؤاد الأول إذ تقدم بتغيير لون العلم المصرى من الحمرة إلى الخضرة ، فجانس بين شعار هذا الوطن وبين حليته وبهجة منظره ، ومعين ثروته ومادة حياته من العهد القديم !

ثم هذا الفلاح جاهد فى حرث الأرض وفلحها ، ولا زال كدأبه معها ، ولا زالت كدأبها معــه من الزمان القديم : كلما غذاها بالسماد ، ورواها بالماء ، أمدته بالخير ، ووصلته بالنعماء .

ولعل أول صناعة عالجها الإنسان فى هذه الحياة هى استنبات الأرض واستخراج ماتجود به من ألوان الثمرات . وستظل ، على التحقيق هذه الصناعة قائمة إلى غاية الزمان .

عاش الفلاح للأرض ، وعاشت الأرض للفلاح ، وعاشت كلاهما للخلق أجمعين .

هذا عيش الريف فى النهار ، فاذا جن عليه الليل نامت الطبيعة ونام معها الإنسان والحيوان ، فلا تسمع فيها حِساً إلا ماتسمع من نباح كلب أوعواء ذئب ، أو نقيق ضفدع ؛ ولقدتسمع فى بعض الليل عزيف بندقية يطلقها بعض عسس القرية ، أو حراس البيادر (الأجران) ، أو الزروع إذا أدركت الثمار . فاذا كانت الليــالى قمراء ، تجاوبت الكروان بالتنغيم والتغريد ، وأطالت الأنفاس بالشدو والترديد .

وناهيك بليالى القمر فى الريف ، هذا وجهه قد تفرد فى الأفق جميعه ، تفرد ملك لا يشركه أحد فى الحكم والسلطان . على أنه

مفيض على الأرض ماأعطاه الله من حسن وبهاء ؛ وهذه منحة المتصلة من اللجين المذاب ، وقد ديغت بخضره النبات ، فخرج من اجتماعهما لون هو سحر فى السحر وفتنة فى الفتنة . منظر ، وإن كان يوحى بالشعر ، لا يتعلق بوصفه الشعر . يضئ النفس ويملأ الصدر ألينَ الفرح وأرفقه ، ويحرك عواطف حلوة لذيذة هادئة ، دونها ماترى فى أمتع الأحلام .

يحرك فى صدرك ألواناً من العواطف تشعرك بأنك بت أسعد الناس . عواطف ، وإن كانت جديدة لا عهد لك بها من قبل ، سرعان مايعتريك الشعور من قرارة نفسك ، بأن هذا هو الشئ الذى طالما حاولت الاستشراف له ، فتحول بينك وبينه ظلمة النفس واختلال أداة الحس ، بما جشمتها من كلفة فى وسائل الحياة .

فاذا كانت ليالى السرار ، فالأفق كله كتلة واحدة من الفحم الحالك السواد . هيهات أن ينفذ فيه النظر ، ولو أبى فتر من الأفتار :

« ظلماتٌ بعضُها فوق بعض إذا أخرجَ يدَه لم يكد يراها ، ومنْ لم يجعل اللهُ له نوراً فما له من نورٍ . »[1] صدق الله العظيم .

هذا حديث موجز عن الطبيعة ماثلة فى ريف مصر . أما الحديث عن الفلاح المصرى فى هذه الأيام ، فما يردع ويهول : فقر لا يعد له فقر ، وبؤس لا يلحقه بؤس . مال غائب ، ومطالب لا تبرح

(١) سورة النور .

حاضرة . ومن أين للمسكين بالمال يواتى به بعض الحاجة أو يدافع المطالب الملحة من كل جانب ؟

هذه غلات أرضه مكدسة بين يديه ، لا يجد لها فى أسواق الأرض منصرفاً ولا مفيضاً . لقد سجنتها الحرب ، وأبطل حركتها الكساد العام .

هذا شأن ملاك الأرض ومستأجريها ، كبارهم وصغارهم فى ذلك بمنزله سواء . فكيف بالأكرة والمتكسبين بكد الأبدان ؟

أما أولاد الفلاحين ، فشخوص وأشباح بالية ، تغدو وتروح فى أسمال بالية ، تكشف من الأبدان أكثر مما تستر ، وتبدى من اللحوم ، أستغفر الله ، بل من العظام والجلود ، أعظم مما تحجب . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

وكيفما كانت الحال ، فانك قل أن ترى الفلاح مع كل ذلك ، متسخطاً أو مهتاج النفس . بل إنك لتراه راضياً برغم حزنه الشديد !

ولعل مرد هذا الرضا إلى أن آماله كلها مجموعة فى أرضه . وأرضه لم تخنه ولم تخلف له موعداً . ولقد أقبلت عليه من فنون الغلات بما تقبل به كل عام . فاذا كان بؤس من أثر حصار أو كساد عام ، فذلك ما لا شأن لأرضه به على كل حال . نسأل الله تعالى اللطف بالعباد ، فهو القادر على أن يجعل لنا من هذا الضيق مخرجا ، ويبدلنا من هذه الشدة فرحاً : « فان مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسرا » ولن يغلب عسر يسرين كما روى عن الرسول الأعظم ، صلى الله عليه وسلم .

بقى مايظن أن يتأذى به المهاجرون فى الريف من منكر الأصوات والله لقد رضينا أن نسمع ، عامة الليل والنهار ، نباح الكلاب ، وعواء الذئاب ، ونعيب الغراب ، وطنين الذباب ، وماشئت من نقيق ونهيق ، وثغاء وسواء ، وفحيح وخوار [1] ، على أن تعفى آذاننا من . . . صفارة الانذار !

---

(١) النقيق : صوت الضفدع ، النهيق للحمار ، الثغاء للشاة ، المواء للهرة ، والفحيح للأفعى ، الخوار للعجل .

أعظم يوم فى تاريخ العالم

لا شك عندى فى أن أعظم يوم فى تاريخ العالم على الاطلاق ، هو اليوم الذى هاجر فيه محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه من مكة إلى المدينة . فاذا كنت فى حاجة إلى دليل ، فسيطالعك بعد قليل .

يرى المستعرض لتاريخ الأديان ودعوة الرسل أنها جازت بمراحل ثلاث ، طوعاً لتطور الانسان من البساطة والغفلة والوحشية إلى أن أصبح كفؤاً للحياة المفكرة المدبرة التى تطلب السمو ، وتنشد السعادة فى ظل الأمن والنظام .

الطور الأول : ففى الطور الأول كانت بعثة الرسل مقصورة على الدعوة إلى الايمان بالله ورسوله ، والأمر بأمهات الفضائل ، والنهى عن كبريات الرذائل ، كما كان وعيد المخالفين الكائدين وتعذيبهم وإرسال العبرة بهم بالغاً غاية الرّوعة فى الفتك والعصف والتنكيل.

فلقد أهلك الله قوم نوح ، بعد إذ عصوه وتحدوا دعوته ، بإغراقهم أجمعين .

قالَ تعالى : « حتى إذا جاءَ أمرُنا وفارَ التَّنُّورُ قُلنَا احمِل فيها مِن كلٍّ زَوْجَينِ اثْنَينِ وأهلَكَ إلا من سَبَقَ عليهِ

القَوْلُ ومنْ آمنَ وَمَا آمنَ مَعَهُ إلا قَليلٌ. وَقَالَ اركَبُوا فيها باسم اللهِ مَجريها وَمُرْسَاها إنَّ رَبى لغَفُورٌ رحيمٌ . وَهيَ تجرى بهمْ فى مَوْج كالجِبَالِ وَنادَى نوحٌ ابْنَهُ وكانَ فى مَعْزِلٍ يَا بُنيَّ اركَب معَنَا وَلا تكنْ مَعَ الكافرينَ . قَالَ سَآوِى إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنى مِنَ الماءِ. قَالَ لا عَاصِمَ اليَوْمَ مِنْ أمرِ اللهِ إلا مَنْ رَحِمَ ، وَحَالَ بَيْنَهُمَا المَوْجُ فكانَ مِنْ المغْرَقِين . » (١)

ومن هؤلاء المخالفين من أهلكوا بالريح العاصفة .

قال تعالى : « وأما عادٌ فأهلكوا بريح صرصرٍ عاتيةٍ ، سخّرها عليهم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيام حسوماً ، فترى القوم فيها صرْعى كأنهم أعجاز نخلٍ خاوية . فهل ترى لهم من باقية . » (٢)

وقال تعالى : « كَذَّبَتْ عادٌ فكيف كان عذابى ونُذرِ . إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى يوم نحس مُستَمِر . تنزع الناسَ كأنهم أعجازُ نخلٍ منقعر . فكيف كان عذابى ونُذُرِ . » (٣)

وأما ثمود فأهلكوا بالصواعق والزلازل .

قال تعالى : « فأخذتهمُ الرَجْفَةُ فأصبحوا فى دارهم جاثمينَ . » (٤)

---

(١) سورة هود . — (٢) الحاقة . — (٣) القمر . — (٤) الأعراف .

وقال تعالى : « وأخذ الذين ظلموا الصيحةُ فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنَوا فيها . »[١]

وقال تعالى : « وفى ثمودَ إذ قيلَ لهم تمتعوا حتى حينٍ . فعتَوا عن أمر ربهم فأخذتْهم الصاعقةُ وهم ينظرون . »[٢]

أما قوم لوط فانظروا ماذا أخذوا به من العقاب الشديد .

قال تعالى : « فلما جاء أمرُنا جعلنا عاليَها سافِلَها وأمطرنا عليها حجارةً من سجِّيلٍ منضودٍ . مسَوَّمةً عند ربك وما هِىَ من الظالمينَ ببعيد . »[٣]

وقال تعالى : « فأخذتهم الصيحةُ مشرقين . فجعلنا عاليَها سافلها ، وأمطرنا عليهم حجارةً من سجيل . إن فى ذلك لآيات للمتوسمين . »[٤]

ونكتفى بهذا القدر اليسير فى الاستشهاد بما كان يؤخذ به العصاة الكائدون من ألوان العصف والخسف والتنكيل والتدمير .

وقبل أن نتحول إلى الحديث فى الطور الثانى نرى من الخير أن ننبه إلى أن انقسام التاريخ إلى مراحل أو أطوار ، ليس معناه أن مرحلة تبدأ من حيث تنتهى سابقتها على الضبط والتحديد ، ولا أن

---

(١) سورة هود . — (٢) الذاريات . — (٣) هود . — (٤) الحجر .

التطور من حال إلى حال يحدث دفعة واحدة ، بل إن المراحل ليتداخل بعضها فى بعض كما أن التطور لا يكون إلا بالتغير من طرفيه جميعاً بالنقص من هذا أو بالزيادة من هذا ، حتى يتلاشى القديم ويحل محله الجديد ، وهكذا . وكذلك يكون التطور فى كل شئ فى هذا العالم .

الطور الثانى : أما الطور الثانى فمن أظهر مظاهر الترفق بعض الشئ فى النذر ، والتخفيف فى فنون العقوبات وسعة الدعوة وتبسط التشريع ، سواء فى العبادات أو فى المعاملات بين الناس . وفى هذا الطور أيضاً كانت تعتمد الدعوة ، بقدر كبير ، على التحدى بالمعجزات حتى لقد انتهى هذا الطور بكف العقوبات وتفرد المعجزات .

أما الترفق فى النذر والتخفيف فى ألوان العقاب ، فلقد كان هذا التخفيف يتناول الكم أو الكيف أو يتناولها جميعاً .

قال الله تعالى : « ولقد أخذنا آلَ فرعونَ بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون . »

إلى قوله : « فأرسلنا عليهمُ الطوفانَ والجرادَ والقملَ والضفادعَ والدمَ آياتٍ مفصلاتٍ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين . ولما وقع عليهمُ الرِّجزُ قالوا يا موسى ادعُ لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجزَ لنؤمننَّ لك ولنرسلنَّ معك بنى إسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرجزَ إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون . »(١)

---

(١) سورة الأعراف .

وقال تعالى : « ولقدْ أوحينَا إلى موسى أن أسْرِ بعبَادى فاضربْ لهمْ طريقاً فى البَحر يَبسًا لا تخافُ دَركاً وَلا تخشى . فأتبعهمْ فرعونُ بجنوده فغَشِيَهمْ من اليمِّ ماغشيهمْ . وأضلَّ فرعونُ قومَهُ وما هَدَى . » (١)

فأنت ترى أن ما أصاب آل فرعون من الجدب ونقص الثمرات وما أرسل عليهم من الطوفان والجراد الخ لم يبلغ من الشدة والروع بعض ما يبلغ العصف والدمدمة والخسف والتدمير . أما إغراق فرعون ومن اتبع بنى إسرائيل من جنده فلعصمة الفارين من كيدهم وبطشهم ، والأمر لا يعدو هنا وقع الأذى على كل حال . على أن عددهم بالنسبة لجمهرة الكافرين الكائدين جد قليل . وأماالمعجزات فحسبك منها معجزات موسى عليه السلام إذ ألقى عصاه فاذا هى حية تلقف ما يأفك الساحرون ، وإذ ضرب بها الحجر فانبجثت منه اثنتا عشرة عيناً ، وإذ ضرب بها البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم .

وحسبك منها معجزات عيسى عليه السلام .

قال تعالى : « ورسولاً إلى بنى إسرائيلَ أنى قد جئتُكم بآية من ربكم أنى أخلقُ لكم من الطينِ كهيئة الطيْرِ فأنفخُ فيه فيكونُ طيراً باذن الله وأبرئُ الأكمهَ والأبرصَ وأحيي الموتى بإذن الله ،

(١) سورة طه .

وأنبِّئكمُ بما تأكلونَ وما تدخرونَ فى بيوتكم ، إنَّ فى ذلك لآيةً لكم إن كنْتم مؤمنينَ . »(١)

الطور الثالث : وبعد فان بمعجزات عيسى عليه السلام قد ختم هذا الضرب من الخوارق التى تجرى على أيدى الرسل ، يتحدون بها المخالفين المعاندين ، ويثبتون بها أن ماجاءوا به إنما هو من عند الله . وكيف لا وقد أيدهم منها بما يخالف سنن الكون ونير على طبائع الخلق !

أما بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، ففوق أنها تشارك بعثة عيسى عليه السلام فى تجردها من الأُحداث التى مرَّ بك بعض وصفها ، فلا عصف ولا خسف ، ولا رياح عاصفة ، ولا زلازل مدمدمة ، ولا شئ من هذا ولا ما دونه مما يزعج النفوس ويدخل الرَّوع على القلوب . فان معجزة محمد صلى الله عليه وسلم تمتاز بأمرين : الأول أنها لا خلاف فيها لسنن الكون ولا مغايرة فيها لطبائع المخلوقات . والثانى أنها باقية مستمرة لا تنقطع على طول الزمان . وقد عرفت من غير شك أن هذه المعجزة هى « القرآن » .

وكذلك جعلت الدعوة الآلهية تتطور وتنمو بتطور الإنسانية ونموها على الأحقاب .

إذاً لقد نضجت الإنسانية أو أصبحت على وشك النضوج وإذاً

---

(١) سورة آل عمران .

لقد تجاوز الانسان طور القصر وبلغ الرشد أو أضحى على شرف البلوغ .

لقد أضحى الانسان حقيقاً بأن يرفع عن نفسه الحجر ، وتطلق له حرية التصرف فى استئنانه مناهج الحياة . إذ قد تهيأ له لو فكر وتدبر ، أن يعرف ماينفعه وما يضره، وما يسيئه فى حفاية ومايسره، وأن يميز بين مايسعده وما يشقيه ، وما يعزه وما يرديه . فاذا اختلط عليه الأمر أو نزعت به العادة إلى الهوى ، نبّه ذهنه ، وحرك فكره ، وضربت له الأمثال ، وأقيمت له الحجة يصول بها العقل كلَّ مصال .

« لا إكراه فى الدين قد تبيّن الرشدُ من الغيّ »(١)

« أوَ لمْ يَنظروا فى ملكوت السمواتِ والأرضِ وما خَلقَ اللهُ من شيْ ، وأن عسَى أن يكونَ قدِ اقتربَ أجلُهم فبأىِّ حديثٍ بعده يؤمنون . »(٢)

« أفلا ينظرونَ إلى الإبل كيفَ خلقتْ . وإلى السماء كيفَ رُفِعَتْ . وإلى الجبال كيف نُصِبَت . وإلى الأرض كيف سُطِحتْ فذكر إنما أنت مذكرٌ . لستَ عليهم بمسَيْطر . »(٣)

وهذان مثلان مما لا يدركه الحصر مما ورد فى القرآن الحكيم .

---

(١) سورة البقرة . — (٢) الأعراف . — (٣) الغاشية .

هذه دعوة محمد ، وقد رأيت أن ما سبقها من دعوات الرسل إنما كان مقدمة لها وطريقاً إليها .

هى الدعوة التى تسعى بالإنسانية إلى غاية كمالها من طريق إيقاظ العقل ، والفسح فى حرية الفكر ، والتى تسعى بالإنسان إلى غاية سعادته من طريق اعتناق الفضائل والتجرد من الرذائل . فيكظم الشهوة ، والعفة والرحمة ، والإيثار ، تستطيع هذه المجموعة البشرية أن تعيش على الأرض ناعمة بالرغد والدعة والسلام . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق . »

ولقد دعا محمد صلى الله عليه وسلم أول ما دعا ، أهله وعشيرته من قريش فكذبوه وشاقوه وآذوه وأسرفوا فى الكيد له والعنت عليه . وكيف له باستعانتهم على بث دعوته ، ونشر رسالته التى أرسل بها للعالمين ، إذ هم أشد من كفر بها وصد عنها ، وبغض فيها ونفر منها ؟

ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره . فلقد أسلم أهل يثرب وآمنوا بالله ورسوله ، وأعدوا أنفسهم للذياد عن دينه مهما جشمهم الأمر من التضحية فى سبيل الله بالأموال والأنفس والأولاد . هذا شعب قوى بعدده ، قوى ببسالته ، قوى بإيمانه . يدعو الرسول ليتسلم زمامه ، ويتولى قياده ، ويثبت من الإسلام دعامه ، ويرفع أعلامه ، ويبسط فى الأرض حكمه وأحكامه . وكذلك يهاجر محمد فى نفر من معشره العاتين إلى المدينة حيث يعز الله الدين ، ويذل الشرك ، ويفتح الله لنبيه الفتح المبين ، وينصره النصر العزيز .

وتعلو كلمة الاسلام فى العالم ويسود حكمه أقطار الأرض ثم لا يمضى أكثر من قرن ونصف قرن حتى ينشئ بفضل تحكيم العقل وإطلاق حرية الفكر أزهى حضارة عرفها التاريخ تجود فى ظلها القرائح بأجدى العلوم وأندى الفنون ، مما لا تزال آثاره ، ولو على أيدى غير أهله ، نابتة على وجه الزمان !

أرجو أن تكون أنت أيضاً قد آمنت بأن يوم الهجرة هو أعظم يوم فى التاريخ .

فى الهجرة

بين الحق والقوة

قصة ، وهى أضخم قصص الحياة جميعاً ، لأنها تروى أضخم أحداث التاريخ جميعاً . على أنها قصة لم يلفقها الخيال ، ولم يبتكر لها الأبطال ، ولم يخترع لها الوقائع إختراعاً ، ولم يبتدع لها النتائج ابتداعاً ، ومع هذا فهى أجمل ما روى أصحاب القصص وأبدع ، وأفخم ماحاك خيالُ الروائيين وأروع . هى قصة إذا لم تكن من نسج الخيال ، فان الحقيقة فيها قد سمت على محلق الخيال !

هى شئ لولا أنه وقع ، لما صدق أحدٌ أنه يقع ، ولولا أنه كان ، لما ارتاب أحد فى أنه لا يمكن أن يكون . ولقد جرت حوادث هذه القصة فى صدر القرن السابع لميلاد المسيح عليه السلام . وأما موضوعها فالصراعُ بين الحق والقوة ، وأماكنها فمكة فبيثربَ ثم مكة. وأمابطلها فمحمد بن عبد الله. وأما أشخاصها فصحبه من ناحية ، وقبائل قريش من ناحية أخرى .

هى قصة طويلة جداً ، فقد استهلكت حوادثها العنيفة الرائعة نيّفاً وعشرين سنة . وهى مبسوطة مفصلة فى كتب التاريخ وفى كتب السيَر . وما كنت لأطمع ، بالضرورة ، فى أن آتى عليها فى

مثل هذا المقال . على أن فى تلخيص الملخصين لها ، مادعت المناسبات ، الغنى والكفاية .

على أننى اليوم متعمد بعض مواقفها التى أرى فيها أشد مواطن العبرة ، وخاصة مايومئ منها إلى ما يجوز بالعالم فى هذه الأيام. فلعل فيه قدوة لقوم يتفكرون .

إذاً فلا بد من قتله ، وعلى ذلك اجتمعوا ، لم ينشز منهم على هذا الرأى أحد .

ثلاث عشرة سنة مضت وهو لا يفتأ يوالى إيذاءهم و إضرام الغيظ فى صدورهم بتقريعهم وتسفيه أحلامهم ، وتهاون دينهم ، والزراية على آلهتهم ، ودعوتهم ، فى غير فتور ولا وناء ، إلى الالتفات عما وجدوا عليه آباءهم وأباء آبائهم ، مما استولى منهم على مجامع الشعور ، وملك عليهم أقطار الفكر ، وجرى فى الأعراق مجرى الدم ، إذ هم قوم غلاظ ، شداد الطبع ، تعميهم الأنفة والحفاظ فلا يهتدون بين يديهما طريقاً !

فلما رأوا أن عمه وكافله قد حدب عليه وقام دونه ، فلم يسلمه لهم ، مشى رجالٌ من أشرافهم إليه فقالوا : يا فلان إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فاما أن تكفه عنا و إما أن تخلى بيننا وبينه .

ثم إنهم مشوا إليه مرة أخرى فقالوا له : يا فلان إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، و إنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، و إنا والله لا نصبر على هذا ، من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ،

وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله و إياك حتى يهلك أحد الفريقين ، ثم انصرفوا عنه .

فلما قالوا له هذه المقالة ، بعث إلى ابن أخيه فقال له : يا ابن أخي ، إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا ، للذي كانوا قالوا له ، فأبق عليّ وعلى نفسك ، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق .

فظن هو أنه قد بدا لعمه فيه بداء ، أنه خاذله ومُسلمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه ، فقال : يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته . (١)

نعم ، لقد طالما آذوه ، بعد ذلك ، وأسرفوا في الأذى ، وكادوه وأمعنوا في الكيد له ، وأذكوا عليه من يسبّه ، وتارة من يؤذيه في بدنه ، ومن يُلوّن للمستضعفين من صحبه العذاب تلويناً ، فما زاده كل ذلك إلا إمعاناً في الدعوة ، و إيغالا في التحدى ، وشدة الدأب على ما وجه إليهم ، وتقريعهم على انصرافهم عنه ، ونفورهم منه ، وعدم أخذهم به ، وعلى صدهم عن سبيله .

لقد أعجزهم أمره حقاً ، ولم يغن شيء من ذلك كله في كف دعوته والحد من سعيه ، فكيف الحيلة فيه ، وكيف السبيل إليه ؟

إذاً لم يبق بدٌّ من قتله والخلاص منه ، على أن قتله ليس بالأمر

---

(١) رواه ابن إسحاق.

اليسير ، فللرجل ، وإن قام بدعوته فرداً ، أهلٌ وعشيرة ؛ وهؤلاء الأهل والعشيرة هم فى الجبهة من الأمة لجلالة موضعهم ، وشرف أحسابهم ، وضخامة ماضيهم ، إلى مالهم من عز ومنعة ، وما فيهم من بأس وقوة . وإذا كانت كثرتهم الكثيرة لم تستجب لدعوته ، ولم تصغ لدينه ، فان لهم حفاظاً ، وفيهم عصبية تتعالى بهم عن أن يُقتل رجلٌ منهم ، مهما يكن سبب قتله ويكن بأس قاتله ، وهم قيام ينظرون . فهم ، ولا ريب ، آخذون بثأره لا يقتل قاتله وحده ، بل كل من يقع بين أيديهم من أهله ومعشره الأقربين والأبعدين . وقد يتعصب لهذا القبيل قوم ، ويتعصب لهذا القبيل قوم ، فتكون الفتنة لا يخمد لها ضرام ، أو تأتى على اليابسة والخضراء !

فلتشترك جميع عشائر الشعب إذاً فى قتله واحتمال وتره ، فلا يقوى معشره ، مهما يكن لهم من العزة والبأس ، على أن يقاتلوا الشعب كله ، وكذلك أخرج كلُّ قبيلٍ لقتل البطل ، فتى من أقوى فتيانه ، وأشدهم بأساً ، وتواعدوا باب داره إذا كان السحر .

ويجيئه الخبر بما ائتمر القوم . ولكن من أين جاءه ؟ هذا ما لا يعلم به أحد !

ثم يخرج من داره وهم وقوف ، ويسرع إلى التوارى فى دار صاحبه فيفوتهم دركه ، ولو قد أرخى زمام إرادته لشجاعته لثبت لهم وقاتلهم ، فقتل منهم ، على الأقل ، قبل أن يقتل ، فلقد كان أشجع الناس ؛ ومن كان هذا شأنه لا يهاب الموت ، ولا يخشى من أى ناحية أصابه . ولكنه يعلم أن له فى هذه الحياة مهماً لا يقوم به أحد من العالمين .

وتمت هجرته إلى البلد الذى سبقت كثرة أهله إلى اعتناق ما دعا إليه ، والذى يعلم أنهم معزوه وناصروه ، ومؤيدو دعوته ، مهما يجشمهم من التضحية بالأنفس والأموال .

ولم يمض أكثر من عشر سنين حتى يرى البطل على رأس جيش لجب لا يدرك الطرف آخره ، فى طريقه إلى البلد الذى خرج منه ذلك المخرج الرهيب !

وإذا القوم لا يقاتلون ، ولا يجمعون نية على النضح عن الوطن ، ولا الذياد عن الحريم ؛ بل إنهم ليسلمون ، ويسألون صفحاً كريماً من مالك كريم . فسرعان ما يسجح ويعفو ، ويهيب بالمغلوبين المقضى عليهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء ! »

ولقد عرفت أن هذا البطل الأعظم هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وجل وعظم ، وشرف وكرم ، وأما عدوه المقاتل لدعوته ، الصارف بكل حوله من دينه ، فشعب قريش كله . وأنت خبير بما لهذا الشعب من قوة وبأس ، ومن أنفة وحفاظ .

وبعد ، فإن من ينظر إلى تلك البداية ، ثم يثب ذهنه إلى هذه النهاية ، ليكاد تتفرق نفسه من الحيرة ، وتنطير من العجب كل مطير !

ولكنه الصبر ! الصبر الذى يغذوه الايمان بالحق . وما دام الايمان بالحق قوياً ، فقد هان لقاء أشد الشدائد ، ومعاناة أهول الأهوال . ولا تزال هذه الشدائد ، فى قتالها للحق والصبر ، تضعف

وتتضاءل ، على الزمن ، رويداً رويداً ، حتى تلقى السلاح ، وتسلم أسرها لعدوها وأنفها فى الرغام !

ومما يسترعى الانتباه أن الكتاب العزيز لم يحض على خلة قدر ما حض على الصبر ، فلقد دارت هذه الكلمة ومشتقاتها فيه أكثر من مائة مرة ، وهذه سيرة محمد صلى الله عليه وسلم ، خير مصداق لما يدعو إليه القرآن العظيم .

وبعد ، فليت هؤلاء الذين غصب عليهم حقهم ، والذين خرجوا أو أخرجوا ظلماً من ديارهم ، ليتهم يبنون أنفسهم على الصبر ، ويروضونها على شدة الاحتمال فى سبيل الحق . ففى حديث الهجرة أصدق الخبر ، وفيه أحسن العظات وأبلغ العبر .

ليس ما يضرب فيه القلم اليوم بحثاً قامت فى الذهن حدوده ، وبانت طرقه ، واتضحت معالمه ، واستشرفت مقدماته لنتائجه . إن هى إلا خواطر تجول بها ذكرى الهجرة الشريفة . هى خواطر تتوالى على النفس كما تتوالى مناظر الخيالة (السينما) فى جريدة الأخبار مثلا . على أنها قد تجئ بحكم تداعى المعانى ، و بحكم أضعف المناسبات ، وأدنى الملابسات

وبعد ، فليس من شك فى أن مما يستدعى العجب ، بل مما يكاد يستهلك كل العجب ، شأن أولئك العرب إلى آخر جاهليتهم ، وما صاروا إليه بعد إسلامهم بيسير من الزمان :

لقد كانوا ، فى جملتهم ، قوماً أميين جهالا ، لم تفتتح عيونهم على علم ، ولم يتذوقوا فناً ، اللهم إلا فن الكلام ، وهو غير مغن فى قيام الأمم إذا أغنى إلا قليلا .

لقد كانوا جاهليين حقاً لا يرتبطهم بأى لون من ألوان الحضارة أى سبب ، ولا تنفذ عقولهم إلى شئ مما وراء تلك البوادى التى يسكنون ، حتى لو اضطربوا فيما يجاورهم من البلاد التى أخذت بحظ من الحضارة ، بحكم التجارة ونحوها ، رجعوا إلى قومهم وكأنهم

لم يشهدوا شيئاً غريباً من شأنه أن يلفت أنظارهم ، ويحرك أفكارهم ، كأنما غلقت الأذهان وغلقت القلوب ، « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور . » (١) صدق الله العظيم!

على أنهم لم يسلخوا فى الإسلام إلا صدراً يسيراً من الزمن حتى حذقوا علوم من سبقوهم إلى الحضارة وفنونهم ، بل سرعان ما أنشأوا هم علوماً واستحدثوا فنوناً أوفوا بها على حضارة الزمان !

ولا ينبغى فى هذا المقام ، أن يذهب عن الفكر أن ما نقل العرب من علوم غيرهم وفنونهم قد طبعوه أولا بطابع الفكر العربى ، وسووه حتى سرى فى مساغ الذوق العربى أيضاً ، وهذا فوق ما وسعوا فى آفاق هذه العلوم والفنون ، واستحدثوا فيها من القضايا التى ذهبت بها إلى أبعد الغايات .

وأنت خبير بأنه إنما يبعث على العجب فى أمثال هذه الغرائب ؛ هو غفلة الذهن عن وصل الأسباب بالمسببات ، ولهذا قيل : إذا عرف السبب بطل العجب . . .

ففى الحق إن العربى على ما كان فيه بحكم البيئة من الجفاء والانصراف عن إرسال الفكر فى شئ من دواعى الحضارة التى يشهد أو يترامى إليه أمرها . . . الحق أنه — مع هذا — حديد الفطنة ، سليم الطبع ، مستقيم الفطره . فلما جاءه الاسلام ، وهو دين الفطرة ،

---

(١) سورة الحج .

أذكى مواهبه ، وحرر فكره ، وأجلى ما كان يرين على قلبه ؛ فاذا إنسان كفيء أى كفيء لأ سمى النظر وعلاج جلى العظيمات فى الحياة ، وكذلك يمضى طلقاً إلى ابتغاء المجد الحق من كل سبيل ! . . .

ولقد كان من المتعين على مفكرى العرب ، وقد دخلوا فى الاسلام ، أن يكون أبلغ سعيهم ، وأول ما تتقلب فيه أذهانهم ، هو هذا الدين طلباً لحفظ أصوله وتفصيل أحكامه . فجد منهم من جد فى جمع أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، بطريق الرواية عن الثقات من التابعين أو تابعيهم ، ثم عن الصحابة راوياً بعد راو إلى من سمع منهم بأذنه أو رأى بعينه « ففعل النبى صلى الله عليه وسلم وإشارته كذلك من السنة » .

ولقد أفنى جامعو الحديث أعمارهم فى شدة التحرى والتحقيق والتثبت والتأكيد ، للتمييز بين صحاح الأحاديث وموضوعاتها ، بل للتمييز بين الصحاح ، وتبيين حظ كل منها من القوة طوعاً لحظ رواتها من الثقة والدراية . ثم كان من أثر هذا أن نشأ علم جديد ، هو علم «مصطلح الحديث» ولعله كان من الخير أن يدعى علم «نقد الحديث» .

وفى الوقت نفسه اجتهد آخرون فى استنباط الأحكام الشرعية من هذه الأصول الأربعة : الكتاب ، والسنة ، والاجماع ، والقياس ، مهتدين جميعاً بسلامة الفطرة ، وحدة الفطنة ، وصحة التفكير ، ودقة الاحساس ، حتى لقد ارتجلوا — فى هذا الباب — قواعد وقضايا تخلب باختصارها ووضوحها ودقتها أبرع المشرعين . ولأسق طائفة يسيرة منها على جهة التمثيل : الضرورة تقدر بقدرها — الأصل بقاء

ما كان على ما كان — إن كنت ناقلا فالصحة ، وإن كنت مدعياً فالدليل — ما جاء على أصله لا يسأل عن علته — لا اجتهاد مع النص — الاعتراف حجة قاصرة — اليد دليل الملك — المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً — ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . . . الخ

ولعمرى لم يكن كل هذا الابداع والابتكار أثراً لدرس مدرس أو تقليب للفكر فى كتاب مكتوب ، إن هو كما قلنا من فضل سلامة الفطر ، وحدة الذكاء ، وصحة التفكير .

وإذا كان علماء العرب قد نقلوا بعد ذلك علم المنطق إلى لغتهم عن اليونانية ، فانهم سرعان ما أجالوا فى قضاياه هذه الأذهان الحادة وأراقوا عليها تلك الأفكار الخصبة ، فابتكروا ما ابتكروا ، واستحدثوا ما شاء الله أن يستحدثوا ، طلباً لوفاء هذا العلم على الغاية من الهداية إلى صحة التفكير ، وابتغاء النتائج الحق من صحاح المقدمات .

ثم لم يكفهم هذا ، فلقد نقلوا عن اليونانية أيضاً علم « آداب البحث والمناظرة » وغاية هذا العلم تنظيم وسائل المجادلة بين المتجادلين ، والتزام كل من الطرفين حدة فى الخصام ، وبيان الطرق للإدلاء بحجته ، أو إدحاض حجة خصمه . وكذلك تضحى المناظرة مجدية منتجة ، تظهر الحق على الباطل بقيام الحجة الواضحة غير مضيعة بين سفسطة ومهاترة ، أو نقل لموضوع النزاع ، على أن العرب كذلك قد طبعوه بطابعهم ، وأفاضوا عليه من سايغ تفكيرهم ، ووصلوه بفنونهم ، وأجروا فيه الأمثلة والشواهد مما يعرض لما يعالجون من العلوم .

أما وقد عرضنا للقضايا المسلمة ، وللمنطق ، ولآداب البحث والمناظرة ، فقد حق علينا أن نقف وقفة قصيرة لعلنا نرفه بها عن القارئ بعض الترفيه .

لا غرو علىّ إذا زعمت أن تسعين فى المائة ، إن لم أقل تسعة وتسعين فى المائة ، من المناقشات والمجادلات التى تدور بيننا ، نحن المصريين ، سواء أكانت باللسان فى المجالس الخاصة ، أم بالقلم فى الصحف السيارة ، لا يمكن أن تنتهى بالتسليم من أحد المتحاورين . ذلك بأننا ، حتى الكثير من متعلمينا ، قل أن يعنوا فى جدلهم بترتيب المقدمات المنطقية الترتيب الذى يفضى بها ، فى صحيح القياس إلى النتائج الصحيحة . ولقد يدفعنا الحفاظ للنفس ، والرغبة فى الفلج والخصم إن تنكر القضايا المسلمة . أما نقل موضوع النزاع ، إذا سطت بنا حجة الخصم ، فهذا ما يقع عندنا بغير حساب !

ودعنا الآن من المجادلات العلمية أو الفنية ، وخذ بنا فى ألوان الحوار التى تجرى كل ساعة بين الأصدقاء وغير الأصدقاء .

يقول لك فلان إن فلاناً صنع كيت وكيت مما يتعاظمك ويروعك لضخامته أو لتعذر أسبابه ، فاذا باديته ولو بالشك فيما يزعم ابتدرك بقوله : « وليه لأ ؟ » كأن الأصل أن تضاف إلى الناس الأفعال أو الأقوال ، وعلى المنكر أن يقيم هو الدليل على العكس ، أى العدم أو استحالة الوقوع ، ناسين أبسط القضايا وأوضحها « البينة على من ادعى ! »

ويقول لك آخر إن فلاناً يرتكب كذا وكذا من المؤثمات

فاذا أنكرت منه هذا القول قال فى غير ورع ظاناً أنه يقيم الحجة عليك : كيف وأنا أقارف معه تلك المؤثمات ؟ وقد فاته أن الاعتراف حجة قاصرة على النفس ، فاذا أشرك الغير كان دعوى تحتاج إلى دليل !

ولقد تروى ، فى بساطة ، ما انتهى إليك من خبر نشرته إحدى الصحف ، أو جعلت تردده المجالس من أن فلاناً اتهم فى كذا ، فيبادرك رجل من شيعته طبعاً : حضرتك مبسوط من كده ؟ . . . وترى أن الخبر قد التبس على الغبيّ بالأمنية ، اللهم إلا أن يكون فاسد الضمير فاجرَ النية ! . . .

ومما يضحك ويبكى نقل موضوعات النزاع ، إما فراراً من لزوم الحجة ، أو طلباً للكيد والأذى ، أو جهلا وشدة غباء .

وأذكر نموذجاً واحداً مما وقع لى فى هذا الباب على جهة التمثيل أيضاً . ولم يكن ثمت موضع نزاع ، بل كان هناك سؤال استحال فى غير موجب إلى نزاع : من بضعة أيام طلبت عيادة طبيب الأسنان ، ليخلع ضرساً ألح على ألمه ، وورم لى صدغى . . . وبينا أنا فى غرفة الانتظار ريثما ينتهى الطبيب من علاج من تقدمنى ، إذا رجل حسن السمت ، أنيق البزة ، ويبدأ بالتحية ، فأردها بأحسن منها . . . وما يكاد يأخذ مجلسه حتى يطارح الحديث كعادتنا نحن المصريين إلى من نعرف ومن لا نعرف . فماددته الحديث على ما بى . فى الأسباب العامة طبعاً . ومن حديثه أدركت أنه رجل مزخرف الثقافة مذوّق اللسان ؛ ثم إذا هو يفاجئنى بهذا السؤال : حضرتك من أهل الريف ؟

فأجبته من فورى : لا يا سيدى ، فأنا مولود فى القاهرة ، وما زالت موطنى إلى الآن. فرد على فى ثورة عنيفة : ليه هيه العيشة فى الريف وحشه ؟

لقد ثار ثائرى ، ونهضت لتوى ، وخرجت مسرعاً إلى دارى ، مؤثراً وجع الضرس وضرباته على هذا اللون من الحوار !

إذاً ، لقد كان علىّ أن أخلق قبل أن أُخلق ، وأن أولد قبل أن أُولد ؛ حتى إذا بلغت سن التمييز فى النشأة الأولى ، كان على القدر ، أن يخيرنى الولادة فى الريف والحضر ، فأختار أول الأمرين ، ثم أتبخر فى الأثير ، ثم أبعث فى الريف من جديد ! وإلا كنت امرأً آثماً يستحق اللوم والتأنيب !

وبعد هذه الوقفة المريحة ، أو المتعبة المعنية ؛ نرجع سياقة الحديث على اسم الله :

لقد اقترنت عناية السابقين فى الاسلام بعلوم الدين ، بعناية غيرهم بعلوم اللسان ، من نحو وصرف وأدب وبيان . وذلك لأنها الوسيلة إلى فهم لباب الدين .

وفى أعقاب هذا أو على الأدق فى أثنائه ، التفت مفكرو العرب إلى المنطق ، على أنه مما ينظم الفكر وييسر الطرق لاستنباط الأحكام الشرعية على الوجه الصحيح ، ثم اتجهوا كذلك إلى نقل قوانين البحث والمناظرة على ما تقدم به الكلام .

لم يمنع اشتغال مفكرى العرب بهذا وهذا وذلك من أن يلتفتوا إلى علوم الدنيا من رياضة وهندسة وطب وفلك وغيرها . فسرعان

ما جادوا وما برعوا ، وسرعان ما أجلوا ووسعوا ، وما ابتكروا وما اخترعوا . . . ولم ينسلخ من الزمن غير يسير بالاضافة إلى أعمار الأمم ، حتى صارت هذه العلوم إليهم وكادت تقطع صلتها بغيرهم ، فأصبحوا هم المتحدثين فيها ، والمتحدثين عليها بين أمم الأرض جمعاء ، وكذلك أنشأوا أجمل حضارة وأزكاها فى هذا العالم !

فاذا تعاظمتك تلك النهضة فى مثل ذلك الزمن ، فان مما يدفع عنك العجب أنه قد لاقت تلك الفطرة العربية دين الفطرة . . . دين صاحب الهجرة .

لقد يملك كثرة الناس العجب من تمام عظمة الاسلام فى هذا الصدر اليسير من الزمن وبلوغه ما بلغ فى غير عنف ولا مطاولة يكافئان هذا المجد كله ولا معظمه .

ولست الآن بصدد ترديد ما أثر التاريخ ، ولا دوّن المؤرخون فى فتوح الاسلام وانتشاره السريع العجيب فى قواصى الأقطار وأدانيها، وما كان لأهله فى كل مكان من منعة وعزة وسلطان ، فذلك شئ قد فاضت به الكتب ، واحتفلت بتفصيله الأسفار الضخام ؛ وبحسبى — فيما جردت له هذا الكلام القصير — أن ألفت القارئ إلى أن أمة بادية جاهلة صائلة يكون منها فى هذا الزمن ما كان من العرب بفضل الاسلام . هذا فتح ، وهذه سيادة ، وهذا تعمير وتثمير ، وهذى علوم وفنون وصناعات ، وهذى حضارة لا تتعلق بأذيالها أعلى حضارات التاريخ !

لعمرى ما هذا كله ؟ وكيف كان ؟ وكيف تأتى بهذه السرعة لدولة الاسلام ؟

اللهم إن أوثق يقينى أن مرجع هذا أجمعه إلى ما فى هذا الدين من يسر عظيم .

الدين يسر ، وبفضل هذا اليسر كان من دولة الاسلام ما كان ! سنقول : إن الاسلام ما ساد إلا لأنه حق ، وأقول لك : وهل ثمة أيسر من الحق أو أعسر من الباطل ؟ ومتى احتاج الحق فى تجليته إلى عنف أو إلى جهد ؟ إن الباطل هو الذى يحتاج إلى هذا وهذا ، وقل أن يثبت له معهما قرار !

وإذا قيل إن الاسلام دين الفطرة ، فمعنى هذا أنه دين اليسر ، لأن ما جاء على حكم الفطرة لا عسر فيه ولا مشقة . أما ما جاء على جهة التكلف والتصنع فذلك الذى يقتضى كثيراً أو قليلا من الجهد والعناء .

الدين يسر ، وإن هذا اليسر ليغمره من جميع أقطاره . أرأيت أيسر من دعوته « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » .

وأى شىء لعمرى فى هذه الجملة ينشز على الفهم ؛ بل أى شىء فيها ينعثر فيه الذهن وتضيق عنه مساحة أدنى التفكير ؟

هذا اليسر فى هذا الحق الذى لبس وراءه حق ، هو الذى سلك أقطار الأرض بدعوة الاسلام ، واستفتح لها قلوب الأمم والجماعات فى غير علاج ولا استكراه ؟

هذه الدعوه اليسيرة الواضحة لقد تغنت بنفسها عن العنف والاضطرار : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » [1] . بل لقد استغنت عن استدراج الناس بفنون الاغراء والاستهواء .

---

(١) سورة البقرة .

وهذه تكاليف الاسلام ، ما قامت فيها مشقة إلا قامت بازائها رخصة ؛ ولا كان فى أحدها على أحد عسر إلا ذلل بين يديه طريق العذر ، وهل بعد ذلك اليسر كله يسر ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه » ،

وقال تعالى فى كتابه الكريم : « وما جَعَلَ عليكُمْ فى الدِّينِ من حرجٍ »(١) صدق الله العظيم .

لم يقتض الاسلام أحداً احتمال مالا طاقة له باحتماله ، فهذه تكاليفه ، من استطاع القيام بها ، وإلا تخفف منها فى حدود أحكام الشرع الكريم ، حتى تكافئ طاقته ، ويتسع لها ذرعه ، ولا يتحرج بها وسعه ، مقبولا عذره ، مكفولا عند الله أجره .

ولعل من الخير أن أنبه فى هذا المقام إلى شئ حقيق بالانتباه : ذلك بأن من القواعد المسلمة أن الضرورات تبيح المحظورات ، « فمن اضطُرَّ غيرَ باغٍ ولا عادٍ فلا إثمَ عليهِ »(٢) فالتفريط فى غير ضرورة ، والتخفف من أحكام الشرع من غير داع جدى إثم من الآثام . ومن القواعد الأصولية المقررة ، إن الضرورة تقدر بقدرها ، ولا شك بعد هذا فى أن تتبع الرخص وتلمس المعاذير إنما هو ضرب من الاحتيال للتهرب من تكاليف الدين وهيهات لا ينطلى على الله محال !

ومن يسر هذا الدين أنه لم يقم بينك وبين ربك أية واسطة .

---

(١) سورة الحج . — (٢) البقرة .

وليس من شك فى أن ما تسطيع تناوله إلا بواسطة غيرك . فاذا زلت بك القدم ، وقلبك الشيطان فى المنكر ، أقبلت على ربك ، وسألته قبول توبتك ، والعفو عما أسلفت من ذنبك ، مطمئناً إلى « إن الله يغفر الذنوب جميعاً » (١). ليس بك حاجة إلى من يمهد بين يديك سبيل المعذرة ، ولا من يعانى لك استخراج العفو والمغفرة .

وبعد ، فان من يسر هذا الدين شدة تسامحه ، ولا يذهب عنك أن هذا التسامح إنما كان من أبلغ الأسباب فى عظمته .

لا يدعوك الاسلام إلى كراهة ما يصدر عن مخالفك فى الدين لأنه يخالفك فى الدين ، بل يدعوك إلى أن تكره منه ما يكره ، وتقر منه ما يحب ويؤثر ، فهو وأخوك المسلم فى هذا بمنزلة سواء .

ولقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس جبة رومية .

وقال تعالى فى كتابه الكريم : « وطعامُ الذين أوتوا الكتابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لهمْ . »(٢)

ولا ريب فى أن لهذا ولهذا دلالة كان لها أعظم الآثار فى نهضة الاسلام !

لم ينفر المسلمون من مخالفيهم فى الدين ولا فى الجنس ، ولم يحجز بهم تعصب عن مخالطتهم والاتصال الوثيق بهم ، والانتفاع بكفاياتهم

---

(١) سورة الزمر . — (٢) المائدة .

والأخذ عنهم . ولم يكد يستقيم أمر الملك لهم حتى أقبلوا على علوم من سبقوهم فترجموها إلى لغتهم ، وجعلوا يترددونها ويشيعون الأذهان فيها ، ويطبعونها على غرار عقولهم ، و يزيدون فيها ما فتق الرأى والذكاء لهم . كذلك كان شأنهم فى الفنون ، فقد حذقوها أتم الحذق ، و برعوا فيها أعظم البراعة ، وأداروها على أذواقهم ، حتى اتسق لهم منها فن خاص ؛ وناهيك بالفن العربى الذى ما برحت آياته مسطورة على جبين الزمان .

أرجو أن تكون قد اطمأننت بعد هذا ، إلى أن اليسر فى الاسلام، كان من أبلغ الأسباب فى عظمة الاسلام .

فى الحروب

بماذا كان ينتصر الاسلام

ما وقع حدث من أحداث هذه الحرب ، وخاصة فى ألبانيا التى أصبحت معتركا حامى الوطيس ، بين دولة صغيرة ، قليلة العدد ، قليلة العُدد ، ضئيلة الموارد كل همها من العيش أن تحظى داخل حدودها بالأمن والسلام ، قانعة باليسير مما أفاءت عليها الطبيعة ، وما يعالجه أبناؤها النشيطون من فنون الصناعات ، وما يرجونه إلى أسواق العالم المختلفة من ألوان التجارات ؛ لها من كل أولئك مقنع وليس لها فيها وراءه أى مطمع ، فاذا كان لها جيش أو كان لها أسطول فبقدر ما تؤمن الحدود وتمنع الثغور ، ولو إلى حين . أما الطرف الثانى من هذا المعترك فدولة عظيمة ، قوية بعَددها ، قوية بعُددها ، قوية بصناعاتها وبتجاراتها ، قوية بمستعمراتها الواسعة الشاسعة التى ضمنت أرضوها من الكنوز المعدنية ما يغنى فى كل شئ من أسباب الحياة القوية الفنية ليس أعز منها فى هذا العالم حياة . ومع هذا فاننا نرى أن هذه الدولة الصغيرة الدقيقة فى كل شئ ، لا تفتأ تضرب هذه الدولة العظيمة الضخمة فى كل شئ ، كلما طلعت الشمس ضربة وتركلها كلما غربت الشمس ركلة ، وبين ذلك لا تفتأ فى كل ساعة تجرعها

من الصاب والعلقم مايفرى الحناجر ، ومن الغسلين ما يذيب الأحشاء . وتلون لها من الهانات ما أجراها مثلا للخزى على ألسن العالمين .

لعمرى ما وقع حدث من هذه الأحداث إلا أذكرنى سير العرب السابقين وأحضرنى شأنهم فى فتوحهم ومغازيهم . فلم يكن هؤلاء فى الأكثر الأغلب أكثر من عدوهم عدداً ، ولم يكونوا كذلك أقوى منه عدداً ، ولم يفوقوه فى تنظيم الجيوش وتنسيق الكتائب ، وتدبير المكايد ، وإحكام خطط الحرب ، وتدبير وسائل الكر والفر ؛ بل لقد كانوا أضعف وأهون شأناً فى كل أولئك جميعاً ! ومع هذا فإنهم ما صارعوا إلا صرعوا ولا قارعوا إلا قرعوا ، ولا شدوا إلا ظفروا ، ولا حملوا إلا قهروا ، ولا هجموا إلا انتصروا ، ففتحت بين أيديهم أبواب المعاقل ، ومهدت لهم السبل إلى أمنع المدائن ، وحشدت لهم أضخم المغانم ، واستأسر لهم من المقاتلة أضعاف أضعافهم فى يسر ، يلفت عين الدهر . وكذلك لم تجهد دورة الفلك إلا قرناً واحداً حتى دانت لهم مناكب الأرض ، وذلت نواحى البر والبحر . (١)

---

(١) كان يوم اليرموك لا يزيد جيش العرب فيه على سبعة وعشرين ألفا ، إذ كان جيش الروم لا يقل عن مائتى ألف مقاتل ، أما حرب القادسية سنة ١٦ هـ ، فكان جيش العرب بين تسعة آلاف وعشرة ، فى حين كان جيش الفرس لا يقل عن مائة وعشرين ألفا ، وأما فتح الأندلس سنة ٩٢ فلم يزد جيش المسلمين الغزاة فيه على بضع مئات من العرب وعشرة آلاف من البربر ، بينما كان عدد جند العدو لا ينقص عن مائة ألف ، ومما ينبغى ذكره هنا أن هذا الفتح العظيم تم فى ثمانية أيام لا أكثر !

إذاً لم يظفر العرب ، فى حروبهم ، كل هذا الظفر ، ولم يتهيأ لهم ما دوخوا من البلاد ، وما سلكوا من الأقطار ، وما فتحوا من هذه الفتوح العظيمة فى قواصى الأرض وأدانيها لأنهم كانوا أكثر من عددهم عدداً ، ولا أمضى سلاحاً ، ولا أعلم بفنون الحرب وأخبر بأساليبها ومكايدها ؛ بل لقد علمت أنهم كانوا دائماً دونه فى جميع أولئك بما لا يجوز فيه تشبيه ولا يصح معه القياس .

وبعد ، فلعمرى ، ما مشى النصر بين أيديهم أنى قاتلوا فى شرق الأرض وفى غربها ، بالغاً ما بلغ من الضآلة عددهم ، وواقعاً حيث وقع من الضعف سلاحهم ، إلا بأسباب ثلاثة :

١ — الإيمان
٢ — الرحمة
٣ — العدل

فالإيمان ييسر على النفس التضحية مهما جلت ، بل لقد يغرى بها ويدفع بها فى المطلب الجسام.

ولا تنس أن من أثر الإيمان بناء النفس على الصبر عند معاناة الشدائد وخوض المكاره ، فان إصابة الغرض الذى يدفع المجاهد إليه إيمانه لحقيقة بأن تحد من عزمه ، وتشد من متنه ، فلا يعتريه خور ولا خذلان . وأنت خبير بأن الصبر هو مفتاح النصر ، وصدق من قال : الشجاعة صبر ساعة ، والأمثلة على هذا مما لا يحيط به الحساب !

وبعد هذا أحسب أن العجب قد أخذ فيك بادئ النظر ، من نظم الرحمة والعدل فى أسباب الظفر فى الحروب والتنكيل بالأعداء ، والواقع أنهما قد يكونان أمضى من السيف فى كسب الحروب ، وذلك بأن القسوة وغلظة الكبود لا تجدى على المقاتل شيئاً ألبتة ، بل إن شهرته بين مقاتليه بالرأفة إذا تمكن ، والمعدلة إذا حكم ، لمما يخذلهم عن الاجتهاد فى قتاله ، ويشيع فيمن وراءهم قلة الاستحماس لهم وثقل القادرين على القتال عن نجدتهم ، بل لقد يرجون النصر لهذا العدو ليخرجوا من ظلمهم ، وينعموا فى ظلال حكم ملائكة الرحمة والرقة والعدل والإحسان .

وكذلك ساد العرب الدنيا ، وما هداهم إلى هذا إلا دينهم العظيم . . .

والشواهد على هذا فى حروب المسلمين مما لا يبلغه كذلك الإحصاء .

وبحسبنا أن نورد فى هذا الباب مثلين يسيرين ، أولها أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه ، قال فى وصاة له لأسامة بن زيد قائد أحد جيوشه ولأصحابه ، وهم مرتحلون إلى الحرب التى وجههم إليها : « لا تخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا (١) ، ولا تقتلوا طفلا ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تتبعوا مولياً ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ،

---

(١) مثل بالقتيل : نكل به ، كأن يفقأ عينيه ، أو يشق بطنه ، أو يقطع عضوا من أعضائه .

ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكل ، وإذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . . . الخ »

أسمعت حديثاً فى الرحمة بالعدو المقاتل والرقة له أبلغ من هذا الحديث ؟

ذلك بأن الإسلام لا يبغى بالحرب كيدا ولا شفاء ضغن ! إنما يبغى بالحرب أعلى المثل : فاما دفع أذى ، وإما بسط حق والخير والفضيلة فى هذا العالم .

قال الله تعالى يخاطب رسوله الكريم : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا رَحمةً للعَالمين » صدق الله العظيم[1] .

ولقد قال تعالى فى كتابه العظيم : « إن اللهَ يأمرُ بالعدلِ والإحسان وإيتاءِ ذِى القُرْبى ، وَينهَى عَنِ الفحشاءِ والمنكرِ والبغىِ ، يَعِظكم لعَلكم تذكَّرون . »[2]

وكيف ظنك بدين يأمر بالاحسان حتى فى القتل ! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا قتلتم فأحسنوا القتلة » .

أما التمثيل حتى بالحيوان فقد أغلظ هذا الدين فى النهى عنه ، واشتد فى الوعيد عليه ؛ فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « من مثل بحيوان فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

---

(١) سورة الأنبياء . — (٢) النحل .

وتلك كانت سنة الغزاة والفاتحين فى صدر الاسلام .

وإن تعجب فعجب أن يكون ذلك أدب الاسلام فى عصر كان من السائغ المألوف فيه سوم المحكومين المقهورين ألوان الخسف من إهدار الدماء ، وتخريب الدور ، واستصفاء الأموال ، فى غير جرم يقترف ، أو إثم يجترح ، حتى كاد يكون ذلك شرعاً مشروعاً وواجباً مفروضاً !

وأما المثل الثانى فأجلوه لك فى حادثين مأثورين عن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، وهذان الحادثان معروفان شائعان ، وما كنت لآتى بهما لولا أنه قد اقتضى الالمام بهما نظم المقال ، وأولها ما حكى من أن جبلة بن الأيهم ، وكان آخر مملوك بنى غسان — أسلم وخرج إلى مكة ، فلما كان فى بعض طوافه داس رجل من فزارة على طرف ردائه فحل أزراره ، فلطمه جبلة ، فاستدعى الرجل عليه عمر ، فدعابه وخيره بين أن يترضى الرجل أو يقيد له منه . فقال : يأمير المؤمنين ، أتقيده منى وأنا ملك وهو سوقة ؟ فقال : ولكن الاسلام سوى بينكما !

وأما الحادث الثانى ، فما حكى عن رجل من أهل مصر قدم على عمر ، فقال : عائذ بك يأمير المؤمنين ! فقال رضى الله عنه : عذت بمعاذ ! فقال : لقد ضرب ولد عمرو بن العاصى ولدى (وكان عمرو يومئذ عامله على مصر) ، فأرسل فى طلبه معه ولده واستقاد من الولد والوالد جميعاً ؛ ثم أقبل على عمرو وقال : ياعمرو ، بماذا استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟

هذه الأمثلة على قلتها ، تريك مبلغ ما يدعو إليه الاسلام من الرحمة بالمقهور والرقة له ، و إقامة العدل بين الناس ، مهما يكن الفرق بين الظالم والمظلوم ، وأخيراً توطيد الحرية وتوكيدها على أنها حق طبيعى للانسان ، كائناً من كان .

أما الحرب فى هذا العصر ، فلقد صارت إلى ما ترى ، وهى إن امتازت بشئ فأبرز ما فى وجوه هذا الامتياز أن ضحاياها وصالى حرها من المستأمنين الوادعين ، أصبحوا أكثر كثيراً ممن تجردوا للقتال ، واستنفروا للكفاح والنزال ؛ بل لقد تعدل الموبقات القواصف من الطائرات عمداً عن المسالح ومستودعات الذخائر ، وثكنات الجند ، وغير ذلك من أسباب الحرب ، إلى دور المستأمنين ، حيث المرأة ترضع ولدها ، وحيث الرجل الذى نام ليستجم للعمل من بكرة الصباح إلى غاية النهار الأطول ، سعياً على الأم الشيخة ، والزوج والطفل الثلاث أو الأربع ، وحيث المريض المدنف يتلوى على الجنبين من ألم وعذاب ، لقد تعدل تلك المدمرات القواصف إلى هؤلاء عمداً ، وتزلزل عليهم الأرض زلزلة ، وتدمر الدور تدميراً ، فاذا هؤلاء أجزاء تتناثر ، وأشلاء تتطاير ، فمن سلم منهم على الموت ، فليستقبل حياة شراً من الموت .

فاذا جاءك أن الاسلام فتح كل هذا الفتح ، وملك كل هذا الملك ، وانبسط له على وجه الأرض كل هذا السلطان فى أقل من قرن واحد ، فان السر لا يعدو ما قدمنا لك من قوة الايمان ، وإشاعة العدل بين الناس ، وإيثار الرقة والرحمة بالانسان وبالحيوان !

وإذا طلعت عليك الأنباء فى كل صباح وكل مساء بأن الجيش اليونانى الصغير الضئيل لا يفتر لحظة واحدة عن صفع الجيش الطليانى الضخم الكثيف باليد ، وركله بالرجل إذ لا يكاد يرى فيالقه وكتائبه إلا من الأقفاء من انهزام بعد انهزام ؛ إذا طالعتك الأنباء كل ساعة بهذا فصدق ، وأحل الأمر كله على قوة الايمان بحق الوطن المعتدى عليه بغير إثم ولا عدوان !

فاذا قال لك قائل ، لقد ذهب عنك ما فعلت القوة القوية من اجتياح للمالك وقبض على نواحى الشعوب ، واستصفاء لأموال الأمم ، وامتصاص لدمائها واتخاذها عبيداً فقل له : لا تعجل بالحكم ، فان الله ليملى للظالم ، ولتعلمن نبأه بعد حين .

كتاب مفتوح

من عمر المختــار إلى الماريشــال جرزيانى

عزيزى الماريشال

أكتب إليك هذا وأنا حق واثق من أنك لم تنسنى ، بل حق واثق من أننى ، وخاصة فى هذه الأيام ، أتمثل لك سواد الليـــل وبياض النهار . ومهما يكن من أمر ، فان آخر لقائنا لم يمض عليه من الزمان ما ينسى الصديق عهد الصديق !

أتذكر ، يا عزيزى ، ذلك اليوم الذى جاءوك بى وأنا مقرن فى الأصفاد ، فتقدمت إلى أحراسك أن يلقونى فى الطيارة التى أسرت بأعدادها لمهم لم تقم به طيارة من قبل . وسرعان ما حلقت بى ، تشق أجواز الجو طبقة بعد طبقة حتى كادت تصك وجه الشمس . ثم قذف بى من ذلك الحالق قذف النواة ، لا رحمة ولا إشفاق !

وإن أعجب لشئ ، وإن أفرح بشئ ، فبطيارتكم التى بلغت هذه السرعة الهائلة ، بحيث تحمل المرء من هذه الدنيا فتبلغه جنة عدن فيما دون عشر دقائق !

ولئن عاب أهل الدنيا طياريكم ، معشر الطليان ، بأنهم لايحسنون إصابة الأهداف ، لقد اضطرب هذا الحكم عليهم بين الجهل والتجنى

فطياروكم أحسن الطيارين تسديداً إلى المرامى و إصابة للأهداف ، مادامت القذيفة شيخاً فى حدود المائة ، والهدف ظهر الصحراء !

عزيزى الماريشال

لقد انعقد إجماع أهل العلم على أن الشجاعة تلازمها الرقة للضعيف ورحمة من ليس له بالكفاح يدان . وكذلك كان شأنكم ، يا معشر قادة الجنود ، فانكم لا تؤذون الأسرى وتسرعون إلى مداواة الجرحى من عدوكم ، كما تداوون جرحاكم سواء بسواء ، وتلقون الجميع بالبشاشة ، وتعاملونهم بالاكرام . فما بالك قد صنعت بى أنا الشيخ الفانى ، ذلك الذى لم يسمع بمثله أحد فى طول الزمان . هذا الذى لا ترضى بفعله الحجارة ، لو كانت الحجارة تشعر وتريد .

لقد التمست لك وجه العذر ، يا عزيزى الماريشال ، ولا تعجب لأن ألتمس أنا العذر لك أنت ، فاننى فى دار لا نحس فيها حقداً ، ولا يجد الضغن إلى قلوبنا سبيلا .

ألم يقل الله تعالى فى كتابه الكريم : « ونزَعنا ما فى صُدورهمْ من غِلٍّ . . . »[1] الآية .

وجه العذر ، فيما أرى ، أنكم ، معشر الطليان ، أو معشر الفاشست ، على الأصح ، وقد جمعتم العزم على فتح أفريقيا ،

---

(١) سورة الحجر .

لتستنقذوها من الجهالة ، وتخرجوها إلى نور الحضارة ، رأيتم سلفاً أن تشهدوا العالم على مبلغ ما أحرزتم أنتم من حضارة وعطف على الانسان . وليس من شك ، بعد هذا ، فى أن فعلتك تيك إنما كانت أصدق نموذج (عينة) لحكمكم إذا ملكتم نواحى الأرض ، وبلغتم سنيتكم فى استعادة ملك الرومان !

ولعلك ، أيها الماريشال الشجاع جداً ، ساعة تقدمت باعدامى على تلك الصورة ، قدرت أننى لن أتعذب أكثر من دقيقة واحدة ، فاننى كنت أجهل مصيرى ، حتى إذا قذفوا بى فى الجو خفق قلبى خفقة أو اثنتين ثم استشعرت صدمة ، هل علمت خطرة البرق ؟ ثم لم أدر شيئاً ، ولم أحس شيئاً ، حتى رأيتنى فى الجنة ، بين الصدّيقين والشهداء . وحسن أولئك رفيقاً .

ولعل هذا مما كان داخلا فى تقديرك أيضاً ، فأبت همتك إلا أن تسدى إلىّ هذا الجميل أجزاك الله عنى أعظم الجزاء !

هناك يا صديقى سؤال يضطرب فى صدرى ولا يجد له متنفساً من جواب : لقد كنت أعلم ، وأنا من أهل الدنيا ، وازددت يقيناً حين صرت إلى الآخرة ، أن السيد المسيح عليه السلام ، كان أكبر مظاهر رسالته الرفق والرحمة ، والمحبة والسلام ، والعفو عمن جنى ، والصفح عمن أساء . ولقد كان عليه السلام ، أول رسول لم يؤيد بمعجزة من عصف أو خسف ، وإغراق أو دمدمة ، أو ريح عاصفة ، أو رجفة قاصفة ، وإنما كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى

باذن الله . وليس وراء هذه الرحمة رحمة ، وليس أبلغ من هذا فى باب العطف على الانسان . فهل من الفضائل المسحية التى تتشادق بها أنت ومعشرك ، والتى تزعمون أنكم ماشهرتم هذه الحرب على خصومكم إلا لتسوروها فى العالمين — هل من هذه الفضائل أن تمثلوا بشيخ مثلى هذا التمثيل ، وتقتلوه بصورة لم تعهد فى تاريخ التذبيح والتقتيل ؟

لا والله ! لقد برئ منكم المسيح الرحيم النبيل ، وبرئت منكم التوراة والانجيل !

وبعد ، فاعلم ، يا هذا الرجل ، ولعلك الآن أنشأت تعلم ، إعلم أن الله تعالى يمهل ولا يهمل ، وهو للظالمين بالمرصاد ، وإنه ليملى للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته .

ولقد أملى لك وأمهلك . وما أمهلك ولا أملى لك ، إلا ليزيد لك فى العقاب ، ويضاعف لك العذاب ، ففسح لك فى الأمل ، وأدنى منك كرائم المنى ، وقطع ، فى نفسك ، جميع علائق الشك فى أن ستكون الغازى الفاتح الذى يرد لقومه ملك الرومان القديم ، فى غير مشقة ولا جليل عناء ، حتى خلت نفسك كذلك ، وتسلقت الزهو به ، وتقبلت الهناء عليه .

نعم ، لقد أذنت وأذن معشرك ، لا فى بلادكم وحدها ، بل فى جميع رقاع العالم ، بأن مصر والقناة التى نسلكها بين البحرين ، وأن السودان من قسمكم ، كما أضحت الحبشة والصومال والأرتيريا

من حر ملككم ، لا ينازعكم على ذلك منازع ، ولا يستطيع أن يدافعكم عن شئ منه مدافع . ولقد سكنتم إلى هذا واطمأننتم إليه ، وخلتم أنكم قد فرغتم من الشغل به . ومالكم تشغلون البال بما حصل فى أيديكم ، ومكنت لكم القوة الساطبة منه تمكيناً ؟

أمهلك الله وقومك وأملى لكم ، حتى بلغتم من حسن الظن بالأيام هذا المدى .

أليس أعداؤكم الانجليز قد خشوا بأسكم فسبقوا إلى إخلاء وجه الصومال لكم ، كما خلوا بينكم وبين السلوم وسيدى برانى ، فاحتللتموها فى غير جهد ولا قتال ؟

إذاً لقد تم الأمر لكم ، فأنتم ولا محالة بالغو قصارى مناكم فى يسير من الزمان ، حتى لقد واعد كثير من جندكم خطيباتهم قضاء شهر العسل ، بعد أسابيع أو بعد أيام ، على ضفة النيل ، والنعيم فى واديه الجميل .

ثم ما فعل الله ، يا ماريشال ، بأمبراطورية الرومان ؟

هذا فرنك ويفل يضربك فى كل نهار ضربة ، فلا يقنع بأن يسترجع منك سيدى برانى والسلوم ، بل إنه ليغير على ملككم فى لوبيا ، فنفتح بلادها مدينة بعد مدينة ، وليتولى على حصونها واحداً بعد آخر . ويأسر حامياتها التى حشدت فيلقاً بعد فيلق . ويغنم من المدافع والدبابات والذخائر وسائر آلات الحرب وعتادها ، لو كنتم تعاقدتم من قبل ، مع انجلترا على أن نورده مصانعكم إليها بالثمن العاجل ، لعجزت فى هذه الفترة عنه ، ولم تستطع ، على شدة حاجتها إلى المال ، الوصول إليه !

ولقد بلغ من خذلان الله لكم أن تظل طائراتكم ، وهى تعد بالآلاف ، جاثمة فى أفاحيصها (مطاراتها) التى تعد بالمئات ، فى انتظار الطائرات البريطانية التى تصبحها وتمسيها كل يوم ، حتى إذا أصلتها ضرباً أو تمزيقاً ، وأوسعتها تدميراً وتحريقاً ، عادت إلى حظائرها وكأنها لم تعان غزواً ، ولم تلاق عدواً !

أفتراك يا ماريشال ، قد تعهدت للانجليز بأن تعينهم على تمرين طياريهم فى إصابة الأهداف وتسديد المرامى ، فنثرت لهم الطيارات فى كل مطار ، ليتعلموا فيها الرماية فى كل ليل وفى كل نهار؟

ألا خبرنى بعيشك ؟ لماذا حشدت كل هذه الجيوش ؟وهى لا تضطلع من أعباء الحرب بأكثر من التسليم ! ولماذا أقمت كل تلك الحصون؟ وهى لم تقم بأكثر من تفتيح الأبواب للغازى المغير ! ولم أرصدت كل هاتيك الموبقات الفواتك من آلات الحروب ؟ إذ هى لم تصنع أكثر من أن تعد نفسها غنيمة للعدو باردة برود الثلج !

ثم ماذا كنت تصنع أنت ، يا ماريشال ؟

لم يسمع أحد قط أنك قمت بهجمة ، أو تحركت لاتقاء صدمة ، أو أسددت فيلقاً رق حبله ، أو أنجدت جيشاً انهد حيله !

أتراك قد جئت إلى شمال أفريقيا لتتفرج فى هذه الحرب ، لاشأن لك بوضع خطة ، أو تدبير مكيدة ، أو سن منهج ، أو إصدار أمر ، أو المشورة ، ولو ساعة الضيق ، برأى ؟

صدقنى ، يا ماريشال ، فنحن أهل الجنة لا نكذب أبداً صدقنى إذا قلت لك إنك لو كنت ماريشالا فى رواية مسرحية وجرى فى

أحداثها بعض هذا الذى يجرى فى لوبيا ، لكان لك من الأثر ، فى عالم الحقيقة ، أكثر مما رأى العالم منك فى هذه الحرب ، إذ لم يكن أقل من أن يصدع الماريشال الممثل كرسياً ، أو يكسر طبقاً ؛ أو يمزق ، ولو بأسنانه ، ستاراً !

صدقنى ، يا ماريشال ، أنك لو كان فى موضعك هرٌّ لصارع أو حام لدافع وقارع ، أو طفل لنضح ، أو جدى لنطح !

على أنك لم تصنع شيئاً من ذلك قط يا حضرة الماريشال الغازى الفاتح العظيم .

جرزيانى لقد قتلتنى مرة واحدة ، وها أنت ذا تذوق أمرّ ألوان القتل كل يوم عشرين مرة !

ها أنت ذا ، يا سند إيطاليا ، ومعقل آمالها فى ملك روما القديمة لا تفتأ تبوء بالفشل بعد الفشل ، ولا تفيق من لطمة إلا لتتلقى لطمة . ولا تجوز بفضيحة إلا لتستقبل فضيحة ، أرأيت عذاباً أشد من هذا العذاب ، وعقاباً على الظلم أوجع من هذا العقاب ؟

اللهم إنى لم أكتب إليك هذا شفاء لحقد ، أو بذلا لضغن ؛ فقد علمت أننا ، معشر أهل الجنة ، لا نحقد ولا نضطغن ، ولكن بسطاً للعظة ، وضرباً للعبرة . وفى الختام ، أرجو ، ياحضرة الماريشال ، أن تنوب عنى فى إزجاء أخلص التهنئات إلى صديقك موسولينى قيصر الرومان العظيم !

جنة عدن فى ٢ من المحرم عام ١٣٦٠

[طبق الأصل]

كتاب مفتوح

من جرزيانى إلى القائد السيد عمر المختار

سيدى المختار

السلام عليك ورحمة الله ، ولا شك أن هذا إخبار لا دعاء ، فأنت ، من مثواك فى الجنة ، فى رحمة دونها كل رحمة ، وفى سلام ليس يعدله سلام .

وإنى أشكرك شكراً جليلا على كتابك الذى فرضت لى فيه ضمبراً ؛ إذ ظننت أننى أتمثلك فى مسائى وفى صباحى ، وفى غدوى وفى رواحى ، بما أسلفت إليك ، وما أجرمت عليك . إذ الواقع أنك لم ترد لى على خاطر ، ولم تسنح لى قط فى بال ، اللهم إلا ساعة فضضت كتابك ، وأزلفت عينى إلى توقيعك . فى هذه اللحظة ذكرتك لأول مرة ، وذكرت ما كان منى إليك .

على أنى جد مشغول عن مثل هذا الذى كان منى لك ولغيرك ممن تمكنا من نواصيهم ، وسلطتنا القوة عليهم . مشغول عن هذا كله بالجزع على ما كان إلى الآن ، والهول والذعر مما يكون بعد الآن .

ولقد تكشفت لنا ، نحن قادة الفاشست ، فى ميادين الحرب ،

والسياسة جميعاً ، تلك الحقائق القاسية الأليمة بعد طول احتجاب . ومن هذه الحقائق أننا لم نخلق لحرب ولا لقتال ، بل لقد عوضنا عن هذا بما طبعنا عليه من الفن الجميل ، وما رزقنا من نصيب فيه جليل ، فنحن أدق الناس إذ أحفرنا أو صورنا ، ونحن أجود الخلق إذا غنينا أو عزفنا ، وأبرع العالمين إذا رقصنا أو قصفنا ، وأسهرهم وعدنا فأخلفنا ؛ وما لنا وراء ذلك بالحرب ولا بغير الحرب يدان !

على أن الشيطان زين لنا الفتح والاستعمار ، ويسر لأنفسنا الحرب فى سبيلهما . وقد وفى ، بادئ الرأى ، بعهده ، و بر بوعده ، فقادنا أولا إلى بلاد لا يزال أهلها يعيشون عيش الحيوان ، ولايزال كثير منهم يسكن الغابات كما يسكنها الحيوان ، ولا يأكلون إلا مما يأكل هذا الحيوان . أما اللباس ، إن كان لابد من لباس ، فشقة توارى السوءة ، وأما السلاح فسيوف أو حراب ، إن لم يستغن عنها بالمخالب والأنياب !

وقد صبحنا هؤلاء بما عندنا من كل فاتك قاصف ، ومدمدم عاصف وبكل ما يتطاير بالحمم ، و يرمى عزيفه بالصمم . فسرعان ماسلموا واستكانوا ، وسرعان ماخضعوا ودانوا . وبعد لأى أطبقنا على طرابلس ، ثم ما يليها من صحراء لوبيا ، حيث القوم أهل بادية ، الشعير طعامهم ، والخيام مثواهم ومنامهم . وأما مسعدهم من السلاح فظبى السيوف وأسنة الرماح . فاذا كان فى أيدى بعضهم شئ من البنادق القديمة ، فما لا غناء فيه ولا أضحت له قيمة . وأما مركبهم

إذا اضطربوا في صحاريهم ، فالإبل المهزولة تحمل معهم متاعهم وزادهم ، وعدتهم وعتادهم . لقد أطبقنا على هؤلاء ثم على هؤلاء ، وصببنا عليهم من النار مالا تثبت له الحديد المصفى (الفولاذ) فكيف بالانسان !

ثم رمينا أهل هذه البلاد بكل متعطل في بلادنا ومن لايجد فيها إلى القوت سبيلا ، وكلما شام هؤلاء المرتزقون رقعة من الأرض تنطف ولو بالنزر من الماء ، وتخرج حتى الرقيق من النبات ، أجلوا أولئك المساكين عنها ودعوهم إلى بطن الصحراء !

ثم بعد سنين غير طوال ، أغرنا على معاهدتنا الحبشة وزميلتنا في عصبة الأمم . وسلطنا على أهلها كل ما أخرج العلم من الفاتكات المدمرات ، ولم نتأثم من أن ننضح على العدو الغاز السام ، وغاز الخردل ، إذ هم لا يعلمون من أمر ذلك شيئاً ، ولايدرون من أسباب الوقاية منه والعلاج من أذاه كثيراً ، ولا قليلا .

وكذلك أصبحت لنا إمبراطورية ، ولكنها ليست كل امبراطورية الرومان !

وأخيراً فهذه جارة صغيرة ، تشرف علينا ونشرف عليها عبر البلطيق . ولقد آمناها من كل غارة ، وكفلنا لها السلامة من بغي أية جارة . حتى إذا سكنت واطمأنت بهذا العهد ، جعلنا نتربص بها الغفلة ، ونترصد للغرة ، حتى إذا أخذ عينها الكرى ، أخذناها بجيوشنا وأساطيلنا وطياراتنا بياتاً ، فهبت مذعورة لاتدرى أين المفر ، ولا كيف السبيل إلى النجاة ! ولعمرى لم نرحم حتى

النفساء[١] ولم نشفق على وليدها الذى لم يفتح عينه على الدنيا إلا منذ ليلة واحدة ونهار !

إذاً فنحن دولة عظيمة ، لا تقل عن أعظم دول الأرض فى البأس والسلطان . فليت شعرى لماذا لا ننتضى السيف ، ونمضى ، على اسم الامبراطورية الرومانية ، غازين فاتحين ، ذات الشمال وذات اليمين ؟

وترى ما الذى يعوزنا لنكون كذلك ؟ وهذه جيوشنا المدربة على خير الأساليب العسكرية ، تعد بالملايين . وقد زودت بأكفى الأسلحة وأمضاها فى الحروب الحديثة . وهذه طياراتنا إن شئنا حجبنا بها وجه الشمس عن العالم ، وهذه أساطيلنا تغطى ثبج البحار ، غادية رائحة ، لا تخشى صولة ولا تهاب عادية ، حتى لقد أضحى البحر المتوسط ، بفضلها ، بحيرة إيطالية ، لا يدافعنا عن سلطاننا فيها إنس ولا جان !

ثم هذه حلل ماريشالات وجنرالات وأميرالات وكولونيلات الخ ، قد « فصلها » خياطونا المهرة « تفصيلا » بديعاً . ومن العجيب أنها حين أفرغت على قادتنا فى البر والبحر والهواء ، بدوا فيها وكأنهم ليوث الغاب ، قد سلخوا الأعمار فى الصيال والضراب . وشقوا الصفوف ، وتحدوا فى الجلى سوافع الحتوف . فأوقعوا بالعدو وهزموا ، أو رضوا بالموت وما سلموا !

---

(١) يراد بالنفساء ملكة الناتيا التى فرت مع زوجها ووليدها وهى على هذه الحال !

وهذه فرنسا فلنضربها الضربة القاصمة ، ولو من الخلف ، ولو فى ساعة قدر عليها الانهيار ، فذلك فى تحقيق الحلم الرومانى لاميزان له ولا عيار .

إذاً فهلم يا ماريشالات ، وهلم يا جنرالات ، وهلم يا أميرالات ، وهلم يا سائر الضباط ، وهلم يا رجالات الفاشست ، هبوا هباً للقتال ، وامضوا للكفاح والنضال .

ثم إذا فرنسا تسقط سقوط البقلة الذابلة ، وما جرد أصحابنا سيفاً ولا شرعوا رمحاً . و إذاً فلقد عقد لهم النصر على فرنسا العظيمة ، وحقت لهم المغانم التى لا يبلغها حصر ، وكفلت لهم تونس والجزائر ، جزاء هذا النصر الباهر ! ولا تنس أن تونس والجزائر تقعان فى رقعة الحلم الرومانى العظيم !

وهذه اليونان على رمية حجر من مستعمرتنا الجديدة ألبانيا ، ولا شك أن اكتساحها بجيشنا الباسل ، وسلاحنا الفاتك القاتل ، وعدتنا المجلجلة ، وآلات حربنا المزلزلة ، لا يستهلك أكثر من أسبوع واحد من عمر الزمن . ولكى نقطع عليها سبيل العذر ، فلننذرها فى السحر أنها إن لم تجبنا دهمناها عند الفجر !

أما باقى الحلم الرومانى فقد عقد الأمل فى تحقيقه بسبب داعبكم الماريشال جرزيانى وعسكره الذى لم يتهيأ مثله عدة وعدداً لا للاسكندر الأكبر ، ولا لهنيبال ، ولا لبونابرت .

إذاً فلنفتح مصر حالا ، وليسلك منها فوراً إلى السودان .

والملتقى مع دوق داوست فى حدود الحبشة بمشيئة الدوتشى لا بمشيئة الله !

ثم ماذا بعد هذا ؟

لقد أبت هذه اليونان الصغيرة الضعيفة لا نفأ تولنا نكبة بعد نكبة ، ولا تألونا كل يوم مائة ضربة وضربة . وكأنما لقطت الأرحام فى بلادنا الأولاد ليستأسروا لجنودهم ، وكأنما قامت مصانعنا هذه السنين ذات العدد على صب المدافع الثقيلة والخفيفة ، وصنع الدبابات والسيارات وسائر أسباب الحرب ، لتكون مغانم لهم ، وهذه ألبانيا تسلم لهم أمنع مافيها من حصون ومعاقل ، كانت أقوى درع لمن وراءها من الكتائب والجحافل !

أما أفريقيا ، وما أدراك ما أفريقيا ! أفريقيا ، واخيبتاه ، هى مناط الحلم العظيم .

فأما شمالها ، فهذه لوبيا قد طارت ، وهذه بنى غازى قد طاحت ، وهذا طريق النصر الذى عبدناه لاجتياح مصر ، لقد أضحى لنا طريق الهزيمة والفرار ! وربما سلمت طرابلس قبل أن يصل إليك هذا الكتاب . وكذلك يخرج عن أيدينا آخر معقل على شط بحر الروم ، أو بحر الانجليز ، لا بحر الطليان على كل حال !

وأما ملكنا الكبير فى الأريتريا والحبشة والصومال ، فهذا وبفل ، الجنرال بالكفاية ، لا بالبذلة العسكرية . هل جاء نبأ النمر الجائع ، وقد تمكن من فريسة يحمل لها الشر ويضمر الاضطعان؟

هاهو ذا يبقر بطنها بمخلبه ، وينهش رأسها بأنيبه . وتارة يضغم كتفها حتى تلتقى أسنانه ، ويلعق عظمها حتى يدمى لسانه . وكذلك يمزق ويفل سلكنا كل هذا التمزيق ، أو شرا من هذا التمزيق !

أرأيت ، يا سيدى المختار، أن الحلم الروسانى إنما كان حقاً ؟ على أننا نهب اليوم من نومنا تيك أهول هبوب !

تقول لى فى كتابك : إنك لو كنت ماريشالا فى رواية تمثيلية ، لكسرت ، على الأقل ، طبقاً ، أو صدعت كرسياً ، أو قرضت بأسنانك ستاراً ! ألا فاعلم ، يا سيدى ، أن الله قد عقد لسانى فى هذه الحرب ، ورمى يدى بالشلل . وهيهات الفعل أو القول لأشل اليد معقود اللسان !

وأخيراً ، فاذا كانت هذه الأهوال الكارثة قد علمتنا ، نحن معشر الفاشست ، شيئاً فقد علمتنا شيئاً واحداً ، هو أن الحرب ليست جيوشاً تزم الأفق ، ولو زودت بجميع الفواتك المهلكات ، من مدافع وبنادق ودبابات . ولا هى أساطيل تزحم نواصى البحار . ولا هى طيارات تسد جو السماء . إنما الحرب أولا وآخراً هى . . . رجال !

ولقد أذكرنى هذا ماروى عن ذلك الشجاع العربى — يعنى عمرو بن معديكرب — وقد تهادن ابن الخطاب سيفه ، يعنى الصمصامة ، وقد طارت لها شهرة عظيمة . فقال له أمير المؤمنين : لقد رأيت الصمصامة ولكنك لم تر اليد التى يضرب بها !

سيدى المختار

لى إليك حاجة لبس قضاؤها عليك بالأمر العسير . تلك بأنكم أهل دار سؤلهم مقضى ، ودعاؤهم مستجاب . فأدع ربك أن يقبضنى ولكن على فراشى ، فاننى لا أرى من العدل أن أموت كما يموت الجندى فى ميدان القتال !

و إذا تفضلت وكتبت إلى ، فعنوانى الجديد : وادى لظى — جهنم . يحفظ بشباك البوسته .

والسلام عليكم ورحمة الله و بركاته .

١٧ من يناير سنة ١٩٤١ المخلص

جرزبانى

[ترجمة طبق الأصل]

رمضان

أدركنا رمضان وأهل مصر يستصبحون بالشمع ، إلى أن طغى عليه اتخاذ الكيروسين . ثم نحن هؤلاء اليوم نستضئ بالكيروسين وبالغاز وبالكهرباء ، فكيف كان حظ رمضان من الأضواء والأنوار فى ذلك الزمان . وكيف كان حظه منهما فى هذا العام ؟

لقد كانت القاهرة والاسكندرية وسواهما من الحواضر الكبرى تستحيل ، إذا جن الليل فى رمضان كتلة من النور . النور فى أفنية الدور ، وفى غرفها وحجراتها ، وعلى رءوس الأبواب . ثم فى الشوارع من المصابيح العامة ، ومن المصابيح التى يضطرب بها الأولاد صبية وصبايا ، وأولئك يغنون : « باسادّللوك ، يا وردة ، فى السوق ، وباعوك ، يا وردة » الخ . وهؤلياء يغنين : « وحوى ، وحوى ، إياحة ، بنت السلطان ، إياحة ، لابسه القفطان » الخ .

ولا تنس أن السيدات كن إذا برزن إلى الطريق فى رمضان لزيارة الأهل والصديقات سعين وبين أيديهن الخدم يحملون المصابيح الكبيرة يتألق كل منها بطائفة من الشموع ، فتزيد الطريق نوراً على نور !

أما نوافذ المناظر فمفتحة ، ينبعث منها نور المصابيح ، كما ينبعث منها النور الأعظم ، أعنى ترتيل القرآن الكريم . ولا تنس حظ المساجد الكبيرة ، على وجه خاص ، من ذلك النور والاشراق فى طرفى الليل جميعاً ، ففى صدر الليل صلاة العشاء ، ثم صلاة التراويح ثم تلك الأناشيد البدبعة التى يتغنى بها المؤذنون فرادى وجماعات . فاذا كان السحر ، فتحت أبواب المساجد وأضيئت فيها الثريات ، وأقبل عليها الناس بعد الفراغ من سحورهم ، فانتظموا فى حلق يستمعون إلى دروس العلماء فى تفسير كتاب الله ، وفى حديث رسول الله ، وفى أحكام الشرع الحكيم . حتى إذا قال العلماء : « والله أعلم » أذاناً بختام الدرس ، أسرع الناس فانتظموا صفوفاً ، مولين وجوههم شطر الدكة فى بهرة المسجد ، ليسمعوا صوت أشهر قارئ فى الحى . وناهيك بالشيخ حنفى برعى فى مسجد السيدة فاطمة النبوية ، وبالشيخ أحمد ندا فى مسجد السيدة زينب ، رضى الله عن السيدتين الكريمتين ، ورحم الشيخين العظيمين !

ومادام حديث رمضان قد اسدرجنى إلى ذكر الشيخ أحمد ندا فلا بد لى من أن أقول فيه كلمة (١) .

لقد ولدت فى حى السيدة زينب ، وسلخت فيه مدة الفتوة ، وصدراً من سنى الشباب ، ولست أذكر أننى ، من عهد الصبا تخلفت فى ليلة من ليالى رمضان ، إذا كان السحر ، عن طلب مسجد

(١) للكاتب مقال طويل عن الشيخ ندا نشر فى جريدة « الأهرام » إثر وفاته ، ثم طبع فى الجزء الثانى من كتاب « المختار » للكاتب .

السيدة زينب رضى الله عنها ، أستمع أولا إلى درس الحديث من أستاذنا العلامة الجليل الشيخ محمد السمالوطى ، عليه رحمة الله . حتى إذا فرغ منه فى الوقت المقسوم ، استوى الشيخ ندا على الدكة ، وأنشأ يقرأ :

« بسم الله الرحمن الرحيم . طه ، ما أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القُرْآن لِتَشْقَى ، إلا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى . . . »[1]

وقد انصقل بقراءة الليل صوته ، وحلا نبره ، وسلس له منه ما كان جامحاً ، ولان ما كان فى أول الليل عاصباً ، وأطلقه فى آى السورة الكريمة أبيض ناصعاً كأنما صيغ من ذوب الفضة ، أو كأنما اعتصر من صفحة البدر ليلة تمامه ، لقد أسمعه فى سورة طه كل ليلة ، وفى كل ليلة يخيل إلى أن جبريل ينزل من جديد ، بسورة طه على محمد ، صلى الله عليه وسلم ! وهو يجول فى فنون النغم فارساً خلا من هيبته الميدان ، وتوارى الكماة خشية الضراب والطعان ، ولا يزال كذلك حتى يملأ الآذان طرباً ، ويشيع فى النفوس ما شاء الله أن يشيع من لذة وأريحية وفرح حتى إذا كان من مطلع الفجر على دقائق ، نهض فوقف على الدكة ، وصاح فى مقام الست بأعلى صوته : « يا أمة خير الأنام ، ومصباح الظلام ، ورسول الله الملك العلم العلام . تقبل الله منا ومنكم الصيام والقيام وصالح الأعمال » .

---

(١) سورة طه .

وهنا يطمئن الشيخ اطمئنانة قصيرة ، أرجو ألا تحسبها استراحة من ذلك الجهد العنيف ، وإنما هى استجمام للجهد الأعنف . أستغفر الله ، أرأيت إلى الليث كيف يجتمع للوثاب؟ وكذلك كان الشيخ عليه رحمة الله . فسرعان ما تراه قد وقف على أصابع رجليه كأنه يريد أن يطول مالا يطال ، ويستأنف الدعاء : « وأدخلنا وإياكم الجنة » . فاذا صارت إلى حلقة كلمة « إياكم » يجعل يرتفع فى مد « الياء » ثم يرتفع ، ثم يرتفع ، ثم يرتفع ، متحدياً ما رسم أصحاب الفن لنهايات الأصوات فى سموها ، إذ الناس شاخصون بأبصارهم إلى السماء لينظروا مشدوهين إلى أى مدى يبلغ الشيخ ، حتى إذا جاز هذه الطبقات جميعاً ، وبلغ « الجنة » ، زر حلقه على نونها فعصرها عصراً شديداً ، وكأنه لا يتكلف فى هذا الجهد المهول شيئاً . حتى إذا بلغ هذا المدى خيل إلى الناس أنهم والمسجد الذى يضمهم بأرضه وسمائه ، وعمده ودككه ، ومنبره ومقاصيره ، قد ارتفعوا كتلة واحدة حتى وصلوا إلى جنة عدنان ، ونالوا أعظم ما ينال مؤمن من الرضوان !

ثم يهوى من فوره إلى القرار فيقول : « بمنه وكرمه وجوده ، دار السلام بسلام » ثم يعود إلى محلقه فيصيح : « طلع الفجر ! » الله أكبر ! الله أكبر ! ماذا صنعت لعمرى أيها الشيخ ؟ لقد رن رنة ملأت الآفاق جميعاً ، حتى لو أنه أطلقها فى غسق الليل لانفجر من حلقه الفجر ، ولحق على المؤمنين أن يخفوا لصلاة الصبح ، وما شاء الله كان !

ثم هتف فى صوت هادى وادع : « فاستقبلوا الآن واستمعوا الآذان بعده . . . » ثم أذن للصلاه . . .

هذه بعض الأنوار التى كانت تموج فيها ليالى رمضان حساً ومعنى، ولست أحب أن أقارن بين ما كان يكون فى ذلك الزمان ، وبين ما صارت إليه ليالى رمضان فى هذا الزمان . إنما قصدت إلى العبرة فى المقارنة بين أضواء ليالى رمضان فى عصر الشمع والكيروسين وبين لياليه فى هذا العام ، أى فى عصر الغاز والكيروسين والكهرباء .

لا يخيم الليل حتى يكاد يستحيل ما بين آفاق الأرض منجما من مناجم الفحم ، ظلمة وسواد ، وعالم كأنما قد غط فى المداد ، لاعلان أبشع ألوان الحداد .

« ظُلُمَاتٌ بعْضها فَوْقَ بَعض ، إذا أخْرجَ يَدَهُ لم يَكَدْ يَراها ، ومَنْ لم يجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ . »[1] صدق الله العظيم .

وهذا فوق عواء الصفارة ، إيذاناً بمقدم الغارة .

وبعد ، فهذا ما صنعت هذه الحرب ، وهو على ثقله كأهون ما تتبلى به الحروب غير المقاتلين فى هذا الزمان .

---

(١) سورة النور .

على أننا لا ينبغى أن نبتئس بمجرى القدر فى هذا الشهر العظيم ، فهو شهر الصيام ، والصيام كف النفس عن الطعام والشراب ، أى عن غذاءى الحياة بعد التنفس فى الهواء . وذلك ، والله أعلم ، ابتلاء للمؤمنين ، وامتحان لمبلغ جهدهم واحتمالهم فى طاعة الله ، وتعويدهم الصبر على معاناة المشاق فى هذه الحياة ، فلا يفسدهم طول الترف والتقلب فى الناعم والاسترسال فى معاطاة اللذائذ ، فإن هذا العيش أدعى إلى تكسر النفوس ، واسترخاء العزائم وعدم القدرة على احتمال الشدائد ، وإن أمة يصير بها الأمن والرخاء إلى هذا المصير ، لحقيقة بالتقلص والضمور فالانقراض ، والعياذ بالله !

ونحن ، ذياداً عن الشرف والاستقلال والحرية ، قد نلقى المشاق وأكثر من المشاق ، فمن الخير لنا ، لو تدبرنا ، أن نمرن النفس من الآن فى خوض المشاق ومعاناة الشدائد ، حتى إذا كان يوم الردع ، لا أذن الله ، لاقيناه فى رشد وعزم وصدق يقين :

« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ . »[1] صدق الله العظيم .

---

(١) سورة البقرة .

سعدٌ الرجل

ولست أعنى بالرجل من ليس امرأة ولا غلاماً أو فتاة . ولست أعنى بالرجل كل من يضعون هذه الألوان من الثياب التى يمتازون بها عن النساء فى كل مكان . إنما أعنى بالرجل ذلك الكفء لأن يحمل هذا الاسم الضخم ، هذا الاسم النادر فى ضواحى الزمان .

إنما أعنى بالرجل ، ذلك الواثق بوجوده ، المؤمن برجولته ، المتكئ على نفسه ، الذى لا يسمع إلا باذنه ، ولا يرى إلا بعينه ، ولا يفكر إلا بعقله ولا يمضى فى الأمر ، إذا مضى ، إلا بوحى من سلطان العقل والضمير !

وأخيراً فانما أعنى بالرجل ، ذلك الذى لا يتجاوز عن رجولته لأى غرض ، ولا ينزل عن سلطان نفسه لأى اعتبار . بل إنه ليمضى لوجهه طلقاً ، ولو كان صفاً وحده ، والناس جمعاً بازائه صفاً آخر . وكذلك كان سعد زغلول . لقد كان ، رحمة الله عليه ، رجلا كل الرجل كان رجلا بأوفى معانى هذه الكلمة . فأصبح من حقه أن يفسح له مكان فى أعلى جبهة التاريخ .

وبعد ، فليست الرجولة شيئاً يدرك بالكسب ، أو هى مما يضفيه الناس على المرء ، إنما هى غريزة كسائر الغرائز يفطر الله عليها من

يشاء من خلقه ، فهى من نفسه الباطنية بموضع جوارحه الظاهرة ، ما له فى وجودها ونشأتها رأى ولا خيار !

نعم ، لقد تنمو هذه الغريزة وتشتد بطول المعالجة والمراس ، ومعاناة الصعاب ، ومواجهة شدائد الحياة ، لقد يكون الأمر كذلك ولكنها ، كما قلت ، لا تنال بالكسب ، ولا تجعل بالجعل ، ولا تكون بعد أن لم تكن ، ولا يسبغها الناس ، ولم يأذن بها الله !

ولقد كان سعد زغلول رجلا بأوسع ما يترامى إليه الذهن فى معنى هذه الكلمة ، ولقد تجلت فيه هذه الرجولة من أول نشأته إلى غاية حياته . ولا محيص من أن يكون الأمر كذلك ، اللهم إلا أن يتبدل الخلق ، ويحول الطبع ، وتنصل الغرائز نصول الخضاب . وهذا فى سنة الكون مما يتصل بالمحال !

•

لم أعرف شيئاً عن نشأة هذا الرجل فى الكتاب ؛ ولكنى أعرف غير قليل عن نشأته فى الأزهر ، وما أعرفه ، فى هذا الباب ، فرواية عن لداته وقرنائه الذين لابسوه وعايشوه ، وانتظموا معه فى حلق الدروس ، وذاكروه فى العلوم صدر الليل وأعقاب النهار . وهم ، ولا ريب ، ثقات عدول . وقد وكد الثقة برواياتهم ما شهدت بنفسى ، بعد ذلك ، أيام كان يواتينى الحظ بشهود مجالس هذا الرجل العظيم .

وقبل أن أعرض لرجولة سعد طالباً فى الأزهر ، أحب أن أقرر شيئاً لعله ينفع فى هذا المقام وغير هذا المقام : ذلك بأن جمهرة الناس ، فى كل مكان ، درجت على أن تجرى أحكاماً معينة على قضايا معينة ،

لا ينحرفون بها عنها ذات اليمين ولا ذات الشمال ، ولا يجادلون فيها ألبتة ، ولا يرونها موضع الجدال ، كما نشأوا على عادات وتقاليد تنزل بعضها من نفوسهم منزل التقديس ، على أنهم لم يعتنقوها ويلتزموها عن تدبير أو تفكير . وإنما اتخذوها وحرصوا عليها الحرص الشديد ، لأن من تقدمهم ومن حولهم قد اتخذوها وحرصوا عليها الحرص الشديد ، وتلك القضايا تدعى ، فى عرف أهل العلم ، بالمسلمات . وناهيك بأهل الأزهر خاصة ، فى التسليم بهذه المسلمات ! على أن رجولة سعد الطالب الأزهرى ، أبت عليه أن يخضع ، بادى الرأى ، لما يخضع له من حوله ، ويسلم بما يسلم به من يأخذ العلم معهم ، ومن يأخذ العلم عنهم . فجعل يناقش كل قضية تعرض له من قضايا العلم ، سواء منها المسلمات وغير المسلمات . ويجيل فيها الذهن الحر لم يقيده قيد ، ولم يحد من جولاته ، فى العلل والأسباب ، حد . وهكذا حتى يخرج له الحكم الذى هداه إليه البحث والتدبير ، وهكذا كان سعد من المثل الأولى فى الاتكاء على الذهن أولا ، ثم فى حرية النظر والتفكير ، ثم فى الجهد بما يعتقده هو لا بما يعتقد غيره من العالمين .

ولست أشك فى أن هذه الرجولة ، وإن شئت قلت هذه الألمعية ، أو قلت هذه الحرية التى طبعه الله عليها ، هى التى عدلت به إلى دروس السيد جمال الدين . وكذلك لست أشك فى أنه لقى بهذا وبهذا فى مطلع حياته عنتاً كبيراً ، على أن هذا العنت لم يثنه قط عن وضح السبيل ،

ولا شك عندى أيضاً فى أن هذا : طول النظر ، وتقليب الذهن ، وإثارة المناقشة فيما اطمأنت إليه جمهرة الناس واعتنقته ، بظهر الغيب ، هو الذى قوى روح الجدل فيه ، حتى بلغ منه غاية الغاية . فلقد كان سعد ، رحمة الله عليه ، أحد الناس قولا وأسطاهم فى الحوار حجة .

وهنا لا أجد علىّ حرجاً فى رواية نكتة ظريفة عن سعد ، فلقد كان رحمه الله ، يحب النكتة فى موضعها ، ويرتاح إليها فى مقامها ، ويرسلها جزلة نافذة ، حتى وهو فى أحدّ سورة الخطاب !

حدثنى المرحوم محمد باشا صالح (المستشار السابق فى محكمة الاستئناف وكان من لدات سعد الذين يحضر دروس الأشياخ معهم ، ويستذكرها وإياهم ، قال وعرض ذكر سعد وشدة جدله ، فقلت له ذات يوم : يا شيخ سعد ! إن هذه المناقشات الكثيره تضيع من وقتنا ، ونستنفد قدراً كبيراً من جهدنا . فلا تكاد تبقى لنا فضلا للمطالعة والاستذكار . فهلا تركناها ، وأقبلنا على استذكار ما بين أيدينا من دروس ؟

فأجاب من فوره : وهل تظن أن هذه المناقشات أقل جدوى فى تفنين الأذهان ، والفسح فى الملكات ، وطبع الذهن على النظر والتماس العلل من استذكار الدروس ؟ فقلت له : كلا ! بل هى مضيعة للوقت ، صارفة عن طلب العلم ! فقال : ما دام هذا رأيك فهلم إذاً نتناقش فى هل المناقشة ضارة أو نافعة !

وحسبنا هذا القدر فى رجولة سعد طالباً فى الأزهر . ولنخلص منها إلى رجولته فى المحاماة . فلقد كان فى رجولته وجرأته فى الجهر

بقوله الحق مضرب الأمثال . أما رجولته قاضياً (مستشاراً فى محكمة الاستئناف) فقد يعتمد فى قضائه الحق ولا يعتمد غير الحق . ويحكم بالعدل ولا يحكم بغير العدل ، لا يبالى غضب من يغضب ، بل لا يبالى أن يخالف رجال القضاء إلى غير ما اطمأنوا إليه من فهم ظاهر القانون ، لأنه إنما تهدّى إلى تحقيق العدل بفهم روح القانون . أما سعد الوزير (الناظر) فلقد كان الأسد حق الأسد ، وإن شئت تعبيراً أشد وأقوى ، قلت كان الرجل كل الرجل .

لقد أبت عليه رجولته أن يخضع لقول المعارف (دنلوب) كما خضع له جميع الوزراء (النظار) من قبل ، بل لقد سطت هذه الرجولة بدنلوب وما زالت به لا تألوه رداً وصداً ، حتى قبع من الديوان فى أخفوصة ، لا يسمع له قول ، ولا يمضى له فى شأن المعارف رأى !

أما رجولة سعد فى الزعامة فهذا ما أدع تفصيل القول فيه لأصحابه الذين كانوا لاصقين به فى كفاحه العظيم ، وإن كنت أعرف من ذلك الشئ الكثير .

لقد كان سعد زغلول رجلا حقاً ، رجلا تعز أكفاؤه فى التاريخ الطويل . وصدق شوقى بك ، رحمه الله ، فى قوله : « والرجال قليل . »

غدوة ورَوحة

لقد يئسوا منه كما استيأس هو منهم ، وبلغ برمهم به ، واصطغاؤهم عليه غاية المنتهى . ولم يبق فى علاجه بما بريحهم منه حيلة ، فلقد عرضوا عليه أن يملك عليهم ، أو أن يصفوه بجلائل أموالهم ؛ فأبى إلا مضياً فى شأنه . إذاً فلا بد من أمر يكفيهم كل هذا ، ويكفل الدعة والراحة لهم ، وها هم أولاء يحشرون فى ناديهم ليأتمروا به . وهذا الشيخ النجدى يطلع عليهم من غير موعد ، فيكون نصيحهم وجماع أمرهم . وأقبل بعضهم على بعض يتشاورون ، فقال قائل منهم : أحبسوه فى الحديد ، وأغلقوا عليه بابا ، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من هذا الموت ، حتى يصيبه ما أصابهم . فلا يرى الشيخ النجدى هذا الرأى !

ثم يقول آخر : نخرجه من بين أظهرنا ؛ فننفيه من بلادنا ، فاذا أخرج عنا فوالله ما نبالى أين ذهب ، ولا حيث وقع ، إذ غاب عنا وفرغنا منه ، فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت . وإذا الشيخ النجدى لا يرى هذا الرأى أيضاً !

ثم يقول ثالث : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً

وسيطاً[1] فتىً . ثم نعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً . ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ، فيقتلوه ، فنستريح منه . فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً . فلم يقدر معشره على حرب القوم جميعاً ، ويقول الشيخ النجدى : القول ما قال الرجل ، هذا الرأى الذى لا رأى غيره ، ويتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له .

وينزل الله تعالى على رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، في هذا اليوم : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ . »[2]

ويقول عز وجل : « أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ[3] . قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ . »[4]

ولما هبط الليل جرد أولئك الفتيان إلى داره ، في أيديهم سيوفهم مشهورة . وأقاموا يرتصدون له على بابها حتى يخرج . ثم إذا هو يخرج فيعفر بالتراب وجوههم . وفي غشية أبصارهم يتسلل إلى دار صديقه ما يراه منهم أحد .

فإذا صار في بيت صاحبه أخبره بأنه مهاجر لساعته وآخذه معه ، فإذا سأل صاحبه عن وجهه تعذر أولا لأن بنتيه حاضرتان . ثم اطمأن فباداه بمهجره .

وخرجا من خوخة في ظهر الدار . ولم يمضيا قدماً إلى وجهيهما ،

(١) الوسيط : الشريف في قومه . — (٢) سورة الأنفال .
(٣) ريب المنون : ما يريب أو يعرض من الموت . — (٤) سورة الطور .

فان الأقوام لا بد طالبوهما فى كل سبيل ، بل عدلا إلى غار يعصمهما من العيون حتى تسكن حدة الطلب ويترسل بينهما وبين البلد بعض الأبناء ، ويأتونهما بالطعام ، ويفضون إليهما بما يتسمعون فى شأنهما ، على الأعداء .

ولما فتر حد الطلب بعد ثلاثة أيام ، انطلقا ومعهما دليل يبتغى بهما من السبل ، ويسلك من الدروب ، ما لا يبتغى السيارة ولا يسلكون ، بل ما لعل جمهرة الناس لا يعرفون .

وبعد بضع عشرة ليلة طال فيها الترقب وحذر الطلب ، يبلغ وصاحبه المأمن وهذا المأمن المعز المانع هو يثرب .

وكذلك كان خروج محمد ، صلى الله عليه وسلم ، من بلدة مكة بعد ما عانى من قومه ما عانى ، واحتمل من أذاهم وعنتهم ما احتمل . وكذلك أنجاه الله تعالى من القتل الذى بيتوا لم تخالجهم فيه رحمة ، ولم تحشمهم منه رحم !

نحن الآن فى يثرب ، وقد مضى على تلك الهجرة المهولة ثمان سنين ، ثمان سنين لا أكثر . فليت شعرى ماذا نرى وماذا نسمع ؟

نرى شيئاً لا يكاد يتسع له البصر ، ونسمع جلجلة لا تكاد تحتمل موقعها طبلة الأذن . . .

هذه صلصلة السيوف ، وهذه قعقعة اللأم[1] والدروع ، وهذا صهيل الخيل ، وهذا هدير الابل ، وهذا لجب يحكى جرجرة الآذى[2]

---

(١) اللأم ؛ بفتح اللام وسكون الهمزة : جمع لأمة وهى الدرع .

(٢) جرجرة الآذى : صوت موج البحر .

فى اليوم العاصف ، وهذه الرايات المرفوعة . وهذى كتائب الجند تتلوها الكتائب ، من رجال وفرسان ، كأنهم لم يخلقوا إلا للقراع والطعان . وعلى كل كتيبة علم من أعلام القادة ، وكمىٌّ من الكماة الزادة ، والغطاريف السادة ؛ وهذا محمد صاحب تلك الهجرة على جيش كثيف من المهاجرين والأنصار :

يمشون فى زَغف كأن متونها ... فى كلّ معركة متونُ نهاء
بيضٌ تسيل على الكماة فُضولها ... سيلَ السراب بقفرة بيداء
فاذا الأسنة خالطتها خلتها ... فيها خيال كواكب فى ماء
أبناء موت يطرحون نفوسهم ... تحت المنايا يوم كل لقاء

ولكن أين الطلبة وأين المنتهى ؟ الله ورسوله أعلم !

وما لأحد يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن هذا ، وهو إما قاتل فناقض من بناء الشرك حجراً ، ومقيم فى صرح التوحيد حجراً . وإما مقتول وقد علم أن الجنة تحت ظلال السيوف ؟

ثم تتبين الطلبة ويسفر الوجه ، فاذا هو البلد الذى خرج منه النبى ذلك المخرج منذ ثمان سنين ، هو مكة مثوى قريش الذين آذوه وصدوا عن سبيله ، وكادوا له ولصحبه الأقلين ، بكل ما اتسع له ذرعهم من الكيد ، وائتمروا أخيراً بقتله وتفريق دمه فى القبائل ، فلا يطلب بالثأر له أحد !

ومكة البلد الحرام ، الذى يقوم فيه بيت الله العتيق ، وهو قبلة المسلمين فى صلواتهم أنى كانوا من شرق الأرض وغربها ، والذى

فيه وما حوله تقام فرائض الحج ، التى أوجب الله تعالى ، على كل مستطيع من المسلمين .

ترى ما عسى أن تصنع قريش ، وقد قدم إليهم فى عقر دارهم عدوهم القديم ؟

تالله لقد كانوا أضعف من أن يخرجوا الحربة ، وأذل من أن يناصبوه كيداً أو عداوة . بل لقد ابتغوا النجاة بأنفسهم من حيث أومأ هو إلى مواطن النجاة ، فكانوا بين ثلاثة رجال : إما لائذ بالبيت الحرام ، و إما عائذ بدار أبى سفيان ، و إما مغلق بابه عليه ، فهو حلس الخدر مع النساء ![1]

« الله أكبر ! الله أكبر ! أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله . . . » وهكذا قام بلال يرفع بها صوته فى قلب البيت الحرام بعيون آلهة القوم (أصنامهم) وأسماعها إذا كانت لها عيون وكانت لها آذان !

الله أكبر الله أكبر ، إن فى ذلك لعبرة العبر !

أنظر كيف خرج محمد من بلده وكيف عاد إليه ولم يطو من عمر الدهر أكثر من ثمان سنين !

---

(١) لما تشفع أبو سفيان إلى رسول الله صلى عليه الله وسلم بعمه العباس رضى الله عنه ، ثم أسلم بين يديه فى مقدمه إلى مكة فاتحاً ، قال العباس : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر . فاجعل له شيئاً ، قال : « نعم ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » .

لم يرق جيشه اللجب دماً ، اللهم إلا نطاقاً قطرتها حماقة بضعة نفر لم يكونوا أكفاء لحياة الاسلام !

لقد طالما تحدت قريش رسول الله وسألوه أن يسأل ربه أن يمتحنهم بالآيات الكبرى ، التى امتحن بها الأمم قبلهم ؛ ولكن الرسول لم يفعل ، بل لقد آثر احتمال الكيد والأذى ، علماً منه بأن رسالته أجل من أن تؤيد بالخسف والدمدمة والعصف والتدمير التى كانت أليق بخوالى العصور . بل هى رسالة الحجة والمنطق وخطاب العقل ، ولفته إلى ألوان العبر ، وتمييز النفع من الضر ، والتفريق بين الخير والشر ، وهكذا .

على أن من هؤلاء الذين سألوا محمداً ، صلى الله عليه وسلم ، أن يدعو ربه أن يهلكهم ، ويأخذهم بما أخذ به الأمم ، قبلهم ، مبالغة منهم فى التحدى و إظهار التكذيب للدعوة — من هؤلاء من جاهدوا فى الله حق الجهاد وأبلوا فى سبيل هذه الدعوة أحسن البلاء .

أما أولادهم جميعاً وحفداتهم فهم رافعو راية الاسلام ، ومذكو حضارته الغالية النبيلة فى كل مكان .

ولعمرى لم تفتتح السرايا ولا الجيوش كل هذا الفتح ، و إنما كان الفاتح الأول هو القرآن .

بين الحرب والسلام

لست أرتاب ، ولعل كثيرين من القراء لا يرتابون كذلك ، فى أن دعاية تقوم الآن فى مصر ، تحفزها إلى الدخول عاجلا فى الحرب . وهذه الدعاية تظهر قوية آناً وضعيفة آناً ، صريحة حيناً وقائمة على التعريض حيناً آخر .

ولست أرتاب فى أن هذه الدعاية مصرية خالصة ، لا يستروح منها أى ريح أجنبية .

ولست أرتاب فى أنه ما بعث هؤلاء الدعاة إلى دعايتهم إلا الشعور بالكرامة القومية .

ولعمرى ، ما دعانى أن أقرر أن هذه الدعاية مصرية خالصة ، إلا أن المصدرين لها ممن لم تحص عليهم فى وطنيتهم شبهة ، ولم تلحقهم تهمة ، بل إن منهم لمن له ماض فى الجهاد جليل .

إذاً فالأمر لا يعدو ، أولا ، الأنفة والشعور بالكرامة الوطنية ، والعزة القومية . وكيف لا يثور ، بادئ الرأى ، شعور المصرى الحر ، وهو يشهد الجيش الانجليزى يقوم وحده بقتال من يحاولون غزو بلاده واقتحام أرض الوطن ، إذ أبناء هذا الوطن نفسه قابعون فى أعقار دورهم ، قانعون بهذا الضرب الرخيص من السلامة من أذى الحروب !

ولو أننا نكتفى بهذا الموقف ، موقف المتفرج بشهور الصراع بين المتجمع لغزو وطننا وبين مدافعه عن هذا الوطن ، لو أننا نقف هذا الموقف فحسب ، لهان الخطب بعض الشئ ، ولنا فى المستضعفين فى رقاع الأرض بعض الأسوة . ولكننا لا نفتأ فى نهارنا وليلنا نتشادق بدعوى الكرامة ، ونتغنى بما أصبنا من الاستقلال والحرية !

فاذا أضفنا إلى هذا تلك الأناشيد الحماسية التى بنى أكثرها من لفظ بارد ، وجرى فى تلحين فاتر ، تتكسر فيها أصوات المنشدين وتسترخى وتتزايل تزايلا ينبو عنه أصلب راقص مخنث ، هذه الأناشيد التى تصبحنا وتمسينا كل يوم مرات ومرات ، ندعونا إلى تقلد السلاح ، والهرولة إلى الصراع والكفاح — إذا أضفنا هذا إلى هذا ، كان شأننا فى هذه الدنيا عجباً !

وبعد ، فلست أشك فى أنه ما بعث أولئك الداعين إلى الحرب ، المستنفرين أبناء وطنهم للقتال ، إلا الشعور القوى بأن هذا الموقف لا يليق بالرجال ، ولا يتسق لهذه الدعوى العريضة فى الحرية والاستقلال !

هى ، فيما أرى ، دعاية قد سمت على كل اعتبار . دعوى أثارها مجرد الشعور بالكرامة . والحر إذا أحس أن كرامته قد خمشت ، أو أنها معرضة لأن تخمش ، هب للصراع دونها ، ما يتربص لتفكير ولا تدبير ، ولا يدير الذهن فى فرض أو احتمال ، ولا ينتظر ما يخرجه له القياس من نتيجة الصراع والقتال :

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ونكب عن ذكر العواقب جانبا !

وإذا كانت الدعوة إلى دخول مصر فى الحرب ، من غير إبطاء ، هى المثل الأعلى للحفاظ للكرامة الوطنية ، فان من الخير أن نجرد صدراً من همنا لدرس المسئلة من الجهة العملية .

وقبل أن أعرض لما سقت له هذا الحديث ، أقرر أن مصر لن تعبأ بما عسى أن يجول فى وهم واهم من أن إيطاليا إذا غزتها ، لا أذن الله ، فانها لا تغزوها كيداً لها أو طمعاً فيها ، ولكن قهراً للانجليز !

وإنه لوهم سخيف وضيع ! فالغزو هو الغزو ، وإذا اختلفت الأسباب ، ولو قدرنا أن انجلترا أجلت عسكرها عن مصر ، ونحت أساطيلها عن مياهها ، ما أعوزت الطليان الحجة فى المبادرة إلى احتلالها ، ولو بدعوى التمكن من قناة السويس ، لتسد فى وجه الانجليز الطريق !

وهل من الحزم أن أقف مكتوف اليدين لأننى لست المقصود بالحجارة التى أرشق بها ، إذ المقصود بها غيرى من الناس !

لقد حق علينا الآن أن ننصرف عن هذا الفكر السخيف الوضيع ، ونقبل على ما هو أحق بشغل العقول والأفهام .

وبعد ، فهنالك مسألة أو مسائل خطيرة ينبغى درسها ، ولو درساً سريعاً ، قبل البت فى هذا الحدث الجسام ، على أن تكون الكرامة الوطنية من هذا الدرس فى أسمى مكان .

١ — هل حان الوقت الذى تدخل فيه مصر الحرب مع الطليان أو غير الطليان ؟

اللهم إن مصر لحريصة شديدة الحرص على الوفاء بعهودها لحليفتها العظيمة . ومن هذه العهود أن تشترك معها فى الدفاع فى داخل حدود البلاد . فهل وطئ الطليان أرض مصر حتى تهب طوعاً للعهد المسئول ، للنضال والكفاح ؟

٢ — لندع هذا العهد فهو موفى ، إن شاء الله ، إذا وطئ عدو حدود هذه البلاد ، لا أذن الله ، ولننظر نظرة أسمى وأخلق بأمة تنشد المجد ، وتضرب على التضحية فى سبيل الكرامة أبلغ الأمثال .

ندع هذا العهد ونقبل على أنفسنا بهذا السؤال أترى هذا مما يتسق لكرامتنا القومية أن تظل فى موقف التفرج على هذا الصراع بين من يحاول الاغارة على أرض وطننا ، وبين من يدافعه بقوة السلاح عنها ، إلى أن ينكشف له بعض الثغور ، فتقتحم جيوشه علينا إقتحاماً ؛ وحينئذ نهب للقتال والصيال ! فاذا لم يكتب لهذا المغير فتح ولا غزو ؛ بل لقى اندحاره فى جوف الصحراء ، فماذا يكون شأننا ، بعد ذلك ، وبأى وجه ، لعمرى ، تلقى الأمم العزيزة ، والأمة الانجليزية ، على وجه خاص ؟

٣ — وأخيراً ، ترى هل فكر أولئك الداعون إلى إعلان الحرب فيما تستهلك هذه الحرب من جليل الأموال . وإذا كانت انجلترا تنفق فى سبيلها الملايين فى كل صباح ومساء ، فلا أقل من أنها تقتضينا كل يوم مئات الآلاف أو عشراتها ، على أوضح تقدير !

إنى لأرجو أن يكون أولئك الدعاة إلى الحرب قد فكروا فى هذه الناحية وأحسنوا التقدير .

هذه هى أمهات المسائل التى ينبغى أن ندرس ولو درساً سريعاً قبل البت فى هذا الحدث الجسام .

ولعل خير ما يصنع أن تسرع الحكومة إلى عقد مجلس ينتظم الأقطاب من رجال الحكم ، وقادة الحرب ، وزعماء الرأى ، حتى إذا انتهوا بعد تشاور إلى رأى ، مضت على اسم الله ، والبلاد من ورائها صفاً واحداً ، مزوداً بالفوز العظيم ، سواء فى الحرية أو فى السلام .

كتبت فى بوش فى ١٩ أغسطس سنة ١٩٤٠

كيف نتقى أهوال الحرب

حين أعلنت هذه الحرب ، ودخل فى التقدير العام أن مصر قد تكون هدفاً من أهدافها ، جعلت أفكر وأطيل التفكير فيما عسى أن تدرأ به عن نفسها ، وتدافع المغير عن أرضها ، وتكفل بالأمن والسلامة للوادعين الساكنين ما أذى من يعتريهم من الجو فى هذه الحروب الحديثة من كل مدمدمة قاصفة ، ومزلزلة خاسفة ، ومن كل كاوية حارقة ، ومن كل سامة خانقة .

جعلت أفكر فى هذا وأطيل التفكير . وكان أول ما انحط إليه الفكر ، بالضرورة ، هو إعداد العدة ، واتخاذ الأهبة ، من تجييش الجيوش ، وإمدادها بالسلاح والعتاد ، وتغذيتها بالوسائل التى نضج بها العقل ، وتمخضت عنها التجارب ، وانتهى إليها الفن الحربى ، سواء فى إلحاق الأذى بالعدو وفى اتقاء أذى العدو .

وهذا ما تمضى فيه الحكومة جادة جاهدة . فوق ما تأخذ به الأهلين من الرياضة على النظام فى أوقات الشده ، وتدريب الكثير من منهم على حسن المعونة فى الأحداث .

ثم ماذا؟ . . .

اللهم إن هذا كله وأضعاف أضعافه لا يقى البلاد ، ولا يكفل

السلامة والنجاء ، وإلا لكان أضمن لهذا وأكفل ، أولئك الذين أعدوا للحرب ، والسلامة من ويلات الحرب ، مالا يتصوره العقل ، ولا يكاد يتعلق به الخيال . وهذه الطائرات المغيرة تدمدم عليهم فى أعز مأمنهم ، فتنسف الدور عليهم نسفاً ، ولا تألو حتى الشيخ والمرأة والطفل فتكا وعصفاً !

إذاً فلا نجاء ولا سلامة ، وإذا فلا بد من أهوال تذكر أهوال القيامة ؟

يا ويلتا ! أترى العقل الانسانى قد عجز عن أن يستحدث ما يقى حتى الوادعين من غير المقاتلين ذلك البلاء ، ويعصمهم من هذه المحن والأرزاء ؟

هذا العقل البشرى الذى استحدث ، فى الزمن اليسير ، كل تلك الفواتك المدمرات القاصفات سواء منها ما يتخذ سبيله سوياً فى جحر ، وما يزلزل الأرض ، وما يرمى الخلق بما لا تبلغه ثورة البراكين وما يدسر حتى الحديد المصفى من جو السماء — أترى العقل البشرى قد عجز حقاً عن أن يبتكر ما يكفل الأمن والعافية ، ولو لهؤلاء الوادعين العاجزين عن الخروج إلى معترك القتال !

إذاً فقد أصبح هذا العقل البشرى أداة لا تصلح ألبتة إلا للافتنان فى ألوان الشرور والآثام ! وإذاً فقد حق على الانسان أن يسخر من أنه إنسان ، وأن يتمنى لو يكون حيواناً من بعض الحيوان !

ترى أوصلت الانسانية إلى هذا الحد ، وبلغ العقل الانسانى هذه المنزلة من العجز ؟

أظن أننا نظلم العقل الانسانى إذا نحن أنزلناه هذه المنزلة وألزمناه هذا المكان الوضيع .

فمن القدم فكر الانسان فى دفع مثل هذا الأذى واتقاء هذه المكاره بمقابلة القوة بالقوة ورد العدوان بالعدوان ، على أنه فى العصر الحديث زاد من أسباب الوقاية على قدر زيادة الموبقات فى معدات القتال . فانه فوق دفع شرور الطائرات المغيرة بالطائرة الحارسة فقد استحدثت المدافع المضادة للطائرات ، كما استحدثت المخابئ لمواراة سكان المدن ، وأجدت القناعات الواقية ، وضوعفت الهمة فى وسائل الانقاذ والاسعاف .

على أن هذا كله لا يغنى الوادعين ، إن أغناهم كثيراً ، إذاً فلا زالت كفة الشر هى الراجحة ، وصفقة البلاء هى الرابحة . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

وبعد ، فحين يئست فى هذا الباب ، من الاتقاء بالوسائل المادية ، التفت إلى الوسائل المعنوية ، فاذا هناك ما هو أحصن وأمنع ، وأكفى وأدنى ، وأجل وأعظم ، وأجمل وأكرم .

بين هذه القوى المعنوية قوة لو أن الجماعات والأفراد أخذت النفوس وراضتها عليها لأمكنها ، فى سهولة ويسر ، أن تتقى كثيراً من الأخطار ، وتخفف كثيراً من المضار وتهون ما حتمته الأقدار .

هذه القوة المعنوية التى كثيراً ما تقهر القوى المادية وتظفر بها ، وتفسد عليها حسابها ، وتغلق دون الفوز أبوابها ، هى الصبر والاحتمال .

فبالصبر يقهر الجيش من هم أكثر منه عدداً ، وأجزل عدداً ، وأوفى مدداً . وقديماً قيل : « الشجاعة ، صبر ساعة » .

على أننا كيف قلبنا النظر لا نجد أن شدة انجلت ، وأزمة انفرجت ، ولا أن مسعى نجح ، وعملا كتب له الفلاح ، إلا إذا كان الصبر هو العدة ، وهو الزاد ، وهو المتكأ .

أرنى عالماً أو مؤلفاً ، أو مستحدثاً أو مستكشفاً ، وصل إلى مراده ، فنفع الناس ، وزاد فى بناء الحضارة ، وأجدى بأثره على الانسانية جميعها ، دون أن يكون الصبر هو عدته وملاكه ؟

أرونى غنياً وصل إلى الغنى وأغنى من طريقه المعبد ، إلا ببناء النفس على الصبر الطويل ؟

فى الحق أن الصبر من أجل ما أنعم الله ، على من أنعم من الناس . فليس أدفع للشر منه ، ولحرج الصدر نصيباً فى كل ما تسوء مغباته[1]

قلب نظرك فى جميع أسباب هذه الدنيا تجد للصبر أثراً فى كل ما تحمد غاياته ، ولحرج الصدر نصيباً فى كل ما تسوء مغباته[1] .

ومما يسترعى النظر حقاً أن القرآن الكريم لم يهتف بخلة كما هتف بخلة الصبر ، تكررت فيه ولم يدع إلى فضيلة ، على كثر ما يدعو إلى الفضائل ، كما دعا إلى فضيلة الصبر . حتى لقد تكررت فيه كلمة الصبر ومشتقاتها من : صبر ، يصبر ، أصبر ، الصابرون الخ

---

(١) راجع الأصول صفحة ٩٨٦ مجلد ٢ سنة ٤٨

مائة مرة ومرة ، تدور فى أربع وأربعين سورة ، وحسب الصبر فضيلة .

أن يقول الله تعالى : « وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . . . »(١)

ويقول فيه : « وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ . . . »(٢)

ويقول كذلك فيه : « وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ . . . »(٣)

و « إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ . . . » (٤)

وناهيك بمن كان الله معه . ولا شك أنه حقيق بأن يكفى الشر كله ويلقى الخير أجمعه .

والواقع أن القرآن العظيم ما كرر حديث الصبر هذا التكرير ، ولا وكد الدعوة إليه كل هذا التوكيد ، إلا لأنه مادة الفوز وعدته فى الدنيا والآخرة جميعاً .

وإذا لم تكن سبيلنا فى هذا المقال هى حصر فضائل الصبر ، واستقصاء مزاياه ، فلنقصر الحديث على ما يشاكل ما يعانيه العالم فى هذه الأيام .

والآن فانظر كيف يقول الله تعالى قوة الصبر وبأس الصابرين من المقاتلين :

« يأيها النبى حرِّضِ المؤمنينَ على القِتالِ ، إن يكنْ

---

(١) سورة البقرة . — (٢) آل عمران . — (٣) البقرة . — (٤) البقرة وآل عمران .

منكم عشرونَ صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائةٌ يغلبوا ألفاً من الذينَ كفروا بأنّهم قومٌ لا يفقهونَ . »(١)

ثم انظر كيف يقول : « الآنَ خففَ اللهُ عنكم وعلمَ أنَّ فيكم ضعفاً ، فإنْ يكنْ منكم مائةٌ صابرةٌ يغلبوا مائتين ، وإن يكنْ منكم ألفٌ يغلبوا ألفين بإذنِ اللهِ ، واللهُ معَ الصابرينَ . »(٢)

فقد رأيت أن المجاهد المؤمن الصابر يغلب عشرة من عدوه ، فاذا كان فيه ضعف غلب اثنين باذن الله القوى العظيم .

وقال تعالى فى كتابه العزيز : « يأيها الذينَ آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ، واتقوا اللهَ لعلكم تفلحونَ . »(٣)

وأنت ترى كيف قدم الحث على الصبر والمصابرة على المرابطة والاستعداد للقاء العدو . وذلك إشادة بفضل الصبر ، ولما يعلم الحكيم العليم من أن كل استعداد للقتال ، مهما يعظم شأنه ، إذا لم يكن مقرناً ببناء النفس على الصبر وأخذها بشدة الاحتمال لا خير منه ولا غناء فيه .

وبعد ، فلو قد مضى الكاتب فى ترديد الآيات الكريمة التى

---

(١) سورة الأنفال . — (٢) الأنفال . — (٣) آل عمران .

تحض على أخذ النفس بالصبر ، وخاصة فى ساعات الروع ، وجعل يضيف إليها الحكم والأسباب ، ويردفها بالظروف والملابسات ، لاتسع كثيراً نطاق الكلام عن المساحة المقسومة لمثل هذا المقال ، وفى القدر الذى قدمناه الكفاية إن شاء الله .

على أنه لا يفوتنا أن نزن مبلغ حاجتنا إلى الصبر فى الأيام التى نخوضها الآن ، وفيما عسى أن نلقى فى مستقبل الأيام .

نحن نتوقع غارات تعترينا من جو السماء . وقد تلحق بنا من الأذى قليلا أو كثيراً :

ومن ظن ممن يلاقى الحروب بألا يصاب فقد ظن عجزا

ولنقدر ، لا أذن الله ، أن يأخذنا الهلع والفزع ، فماذا تكون الحال ؟

لعمرى ، لبس شراً على نفسه وشراً على غيره من الهلوع الذى ضل رشده ، وفقد صوابه . وكيف لمثل هذا بالتماس أحسن السبل لاتقاء الأذى والنجاة منه . أو استنقاذ الغير أو إسعاف المنكوب بما يهون من بلائه ويعصم عليه الحياة ؟

اللهم ليس لهذا السليب العقل ، المستطار اللب ، بشئ من ذاك يدان ، بل إنه بهلعه واضطرابه وتخبطه هنا وهناك ، لحقيق بأن يوقع نفسه فى خطر ، وقد يكون بعيداً عنه . ويزيد فى وبل سواه ، وقد يكون على شرف الخلاص منه . والأمثلة على هذا أكثر من أن يلحقها العد أو يحيط بها الاحصاء .

أما هذا الذى أخذ نفسه بالصبر ، فجمع فى ساعة الروع رشده ، وملك ناحية تفكيره وتدبيره ؛ فهو الجدير بأن يحكم التقية قبل نزول البلاء ، ويلتمس المخرج وقت وقوعه . ويسرع إلى نجدة المكروبين ممن عسى أن يكونوا قد أحيط بهم . وإلى إسعاف من عسى أن يكون قد مسهم الضر بما يرد الآلام ، ويعصم من العواقب الجسام !

وأخيراً ، فاذا كانت الأمم المتحاربة الآن تحسب حساباً كبيراً لما يدعونه الطابور الخامس ، فليس عندى أى شك فى أن الهلع والذعر فى مثل هذه الأوقات ، هما أخر هذا الطابور وأنفذ وأفتك .

الهلع والذعر ، هما من أفتك الآلات فى يد العدو ، بل لعلهما أفتك من كل ما تطوله يده من عدة وسلاح . ولا غرو على إذا دعوتهما من الآن بالطابور السادس .

فعلينا أن ندرع بالصبر والاحتمال . ولا ندع للجزع إلى أنفسنا السبيل . وأن نستبقى الرشد ، مهما يجشمنا من جهد . فهذه هى وسيلة النجاة والتخفيف من ويلات هذه الحياة .

أسأل الله تعالى أن يثبت قلوبنا ، ويشد متوننا ، ويكشف عنا هذا البلاء ، ويهون علينا سواقع الأرزاء ، إنه سميع قريب مجيب الدعاء .

هل يكتب لفرنسا العظيمة بعث جديد

لم يجر قلمى قط ، طوال حياتى ، بكلمة واحدة ، فى شأن من الشؤون الخارجية ؛ اللهم إلا ما كان سوقاً لعبرة ، أو ضرباً لمثل من أحداث الزمن الغابر . على أن كارثة فرنسا ، بهذه السرعة قد رجتنى كما رجت الناس جميعاً ؛ وكيف لا ترجنى وترج غيرى ، والعالم كله ، أعنى قواصيه وأدانيه ، إذا ذكر فى أية رقعة منه (العالم) تمثل الغرب ، و إذا ذكر الغرب ، حضرت ، على الفور ، فرنسا . ففرنسا هى لب العالم الحديث وجوهره ، وهى روحه وبصاصه . هى مثابة العلم ، وسوطن الحضارة ؛ وهى منبع الفن ، وهى حصن الحرية والمساواة .

اللهم إن من شأن هذا ، بل من شأن بعض هذا ، أن يبعث الذهن مع التفكير والتدبير ؛ ففرنسا تسلم السلاح بهذه السرعة العجيبة ، ولا يزال لها من حليفتها العظيمة عدة أية عدة ، ومدد أى مدد ؟ ومن ذا الذى يلقى السلاح بين يدى العدو ، و يحكمه فى عنق الدولة كل هذا التحكيم ؟ هم كبار القواد الذين شابت نواصيهم فى خوض المعامع ، وقضوا العمر تحت ظلال السيوف !

لقد فكرت برغمى ، كما فكر الناس . ولقد قدرت كما قدر الناس . فيخرج لى من هذا التفكير ما يهول من الاحتمال وما يروع .

وأرجو ألا تتعجل فتظن أن هذا الذى يهول و يروع هو اندحار فرنسا عسكرياً ، فان الاندحار العسكرى مما يجرى على الأمم جميعاً ، وهو مع ذلك إذا حط من هيبتها ، أو تنقص من مالها ، أو قبض من سلطانها سنين ، طالت أو قصرت ، فانها مستردة هيبتها ، متعوضة عن مالها ، باسطة سلطانها ، مهما تكن قد أنزلت بها تلك الحرب من خسار ودمار . وهذه المثل كثيرة ، منها الحاضر للأذهان ، ومنها ما لا يزال ماثلا للأعيان . ففرنسا التى ضربت الضربة القاصمة فى سنة ١٨٧٠ وسلخ من إيالاتها ما سلخ ، وفرض عليها من الغرم ما فرض ، قد ظهرت على ضاربها فى سنة ١٩١٨ ، وضربته الضربة القاضية ، وفرضت عليه ما فرضت من ذخيرة ومال ، وضربت عليه ما ضربت من سوء حال ، بل مهانة و إذلال ، لا يقدر انبعاثه بعدها أجيالا إثر أجيال ؛ ومع هذا لم تمض بضع وعشرون سنة حتى صنع بها هذا المغلوب ما شهدنا . وليس يعلم إلا الله تعالى كيف يكون المصير !

وكيفما كان الأمر ، فان انهزام فرنسا بمثل هذه السرعة ، حربياً ، إذ هو هال وراع فان مما يعزى فيه أن هذه سنة الحروب فى طول الزمان :

فيوم علينا ويوم لنا ويوماً نُساءُ ويوماً نُسر

ولا بد أن تنجلى غمرتها بعد حين ؛ ولقد مر عليك من الأمثال ما فيه مقنع للمعتبرين !

إذاً ، فلست أخشى ما أخشاه على فرنسا من هذه الناحية ؛ ولكنى أخشى على هذه الدولة العظيمة ما هو أجل وأعظم ، وما هو أكرث وأفدح .

اللهم إنى لأخشى أن يكون هذا التسليم أذاناً بانحلال هذه الأمة إلى آخر الزمان ، أو إلى بعيد من الزمان .

ولست أحيل هذا الخوف على ضرب من التنبؤ ، أو على لون من الحدث والتخمين . إنما هى المقدمات الواضحة التى تفضى إلى النتائج الواضحة . فان يكن قد ند على ضبط بعضها ، فلى إلى العذر سبيل !

وبعد ، فليس عندى أى شك فى أن للأمم أعماراً ، كما للانسان والحيوان والنبات أعماراً . وهذه الأعمار تطول وتقصر أولا فى الحدود المقسومة لكل نوع من الأنواع . وأما بالنسبة للأشخاص فى كل منها ، فمرجع طول العمر وقصره إلى أسباب وعوامل لا يكاد يحيط بها الاحصاء .

وعلى كل حال ، فان نشأة الأمم تبدأ بطفولة كطفولة الانسان ، فاذا قدر لها الاطراد فى النمو صارت إلى فتوة فشباب ، فكهولة فشيخوخة، فهرم فانحلال ففناء . هذه أطوار كل أمة ، ولكل أمة أجل .

وإنما يكون الانحلال والفناء إذا بلغت الأمة الغاية من الحضارة، واتجهت بأجل العزم إلى الغلب فى فنون الترف والنعيم . وهذه الشواهد ما تزال ماثلة فى الأمم الغابرة . ولا أريد فى التمثيل على أمم اليونان ، والرومان والعرب ، فى الشرق وفى الغرب معاً .

فليت شعرى ، هل حان حين فرنسا اليوم كما حان حين تلك الأمم جميعاً ؟ وهل تراها قد دخلت فى دور الانحلال والفناء ، كما جرى على من تقدمها من الأمم الانحلال والفناء ؟

هذا هو السؤال الذى يشغل الهم ، ويضطرب بين جوانب النفس .

وأرجو ألا يظن قارئ أن حظ أمة ، مهما يكن عظيما من العلم والفن والصناعة والمال ، وغير أولئك من وسائل العظمة ، مما يعصمها من هذا المصير . فانه لم يقض على من سبق من الأمم جهل ولا ركود حس ولا خمود عاطفة ولا شلل أيد ولا إعواز . إنما قضت عليها عوامل أخرى ، ترجع كلها إلى شئ واحد ، هو الأخلاق !

وإنما أعنى من الأخلاق ، أولا وقبل كل شئ ، تلك الصفات ، أو على الأصح ، تلك الفضائل ، التى تصل بين المرء والمجموع من إيثار المنفعة العامة والتضحية ، والفناء ، فى النهاية ، فى هذا المجموع ، وهيهات لأمة تستحق هذا الاسم أن تكون كذلك ، إلا إذا كان مجموع أفرادها كذلك . فاذا أقبل كل على شأن نفسه ، وآثر الدعة والتقلب فى ألوان الترف ، بقدر ما يتهيأ له ، وخص بأجل مساعى الحياة النفسَ والولد ! إنفرط ، ولا ريب ، عقد المجموع ، وأصبح الأفراد نثاراً يغدون ويروحون على وجه الأرض ، وهؤلاء لا يمكن أن تعدهم أمة ، وإن حصروا فى رقعة معينة من الأرض ، وإن ضمتهم جنسية واحدة ، وإن أخذوا جميعاً بقانون واحد أو بطائفة من القوانين !

ونعود فنتساءل : هل كان انهزام فرنسا و إسراعها بالتسليم إلى عدوها انهزاماً عسكرياً فحسب ، أو أن هذا الانهزام والتسليم ، إنما كان عرضاً من أعراض الشيخوخة التى تضرب أعضاء الجسم بفنون العلل والأسقام ، والتى لا رجاء معها فى قوة ولا احتمال صدام ، بل إنها النذير الحق بالموت الزؤام ؟

لقد انتصرت فرنسا فى حروبها وانهزمت مرات ، كما انتصر غيرها من الأمم وانكسر مرات . ومع هذا فسرعان ما استردت الأمم المقهورة قوتها ، وواصلت سعيها الحثيث فى سبيل الحياة ، وذلك بفضل حيويتها وما انطوت عليه من الرغبة القوية فى إعزاز الوطن والتضحية بالنفس والولد والمال فى سبيل مجدها ، و إنكار الذات ، بل إفنائها فى المجموع .

و إنما حرك فى نفسى هذه المرة ، ذلك السؤال ، وشبه فيها كل ذلك الشبوب ، ما استشرى فى كثرة الفرنسيين فى السنين الأخيرة من إيثار الدعة ، والافراط فى حب الذات وعدم الاكتراث ، وقلة المبالاة بالمنفعة الوطنية من قريب أو من بعيد ، والظن بالتضحية فى هذه السبيل بقدر كبير[1] .

وأخيراً فان علينا ألا ننسى روح النشوز والتمرد التى طغت بنوع

---

(١) مما أصبح شائعاً على ألسنة الفرنسيين ، أن زوجا إذا سئل ، أو زوجة إذا سئلت : هل لك أولاد ؟ فيكون الجواب الحاضر السريع : أنجيء بأولاد ننشئهم ونربيهم ليذبحوا فى ميدان القتال ؟

خاص ، على طبقة العمال [١] . والشواهد على هذا وهذا وهذا مما يفوت جهد الاحصاء !

ذلك هو السؤال، فهل لى أن أطمع من بعض العالمين فى جواب ؟

---

(١) حدثنى ثقة جليل القدر . أنه كان إذا هبط باريس نزل فى فندق معروف يتصل به مطعم كبير . فلم يرعه إذ شخص اليه فى صيف سنة ١٩٣٩ إلا أن يرى هذا المطعم مغلقا . فقال لمدير الفندق فى هذا ، فأجابه بأن الخدم لابد وأن ينصرفوا إذا كانت الساعة التاسعة . فمد الاطعام إلى غاية وقت العشاء يقتضى طائفة أخرى من الخدم . وفى ذلك من النفقة ما لا يحتمله المطعم بحال .

والادهى من ذلك والاغرب ما حدثنيه هذا الصديق عن صديق آخر ثقة كذلك جليل القدر قال : فى ذلك الصيف نفسه ركب (فلان) سيارة أجرة (تاكس) ، وسمى للسائق المكان الذى يطلبه ، وكانت الساعة الثامنة مساء إلا خمس دقائق ، فمضى به . على أنه لم تكتمل الثامنة حتى وقف السيارة وأومأ اليه بالنزول . فاستغرب صاحبنا الامر وراجع السائق فى هذا العمل الشاذ . فكان جوابه الهادىء المطمئن : لقد انقضى وقت عملى ، وعلى ان انصرف لشأنى لا أتخلف دقيقة واحدة !

والأدهى فى هذا أن صاحبنا حين دفع لذلك السائق أجره الذى رقمه العداد ، سأله الرضيح (البقشيش) فأبى « بالضرورة » ، فمضى السائق لا يألوه تهكما به وزراية عليه !

إصلاح

من بضعة أيام وجه صديقي الكاتب الجليل القدر الأستاذ محمد توفيق دياب في صحيفة الأهرام كتاباً إلى حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس مجلس الوزراء . وهذا الكتاب يدور حول « الشؤون الاجتماعية » . ولا أكتم القراء أن هذا الكتاب لم يعجبني فحسب ؛ بل إنني لا أجد حرجاً من القول بأنه أطربني ، لأنه أحسن الترجمة عن خاطر طالما شغل نفسي ، واجتاز صدراً من همي .

ولا بد أن يكون كثير من قراء « الثقافة » قد قرأوا هذا الكتاب على أنني ألخص موضوعه تلخيصاً شديداً لمن عسى أن تكون قد فاتتهم قراءته ، ليكون حديثنا بعد ذلك بيناً ، واضح المعارف بين يدي الجميع .

استهل الكتاب بشكر صاحب المقام الرفيع على عنايته الجليلة بالشؤون الاجتماعية في بلادنا ، حتى أنشأ لعلاجها وزارة خاصة ، وبلادنا أشد ما تكون حاجة إلى العناية « بالشؤون الاجتماعية » ، ففي الحق إننا محتاجون ، من هذه الناحية ، إلى فنون كثيرة من الاصلاح .

على أنه ذهب في كتابه إلى أن الاصلاح المادي لا يكفي وحده

فى إدراك الغرض المنشود ؛ بل لا بد من الاصلاح الروحى أيضاً ، ويعنى به إعداد نفوس الشعب لتقبله ، وتجريد العزائم لتحقيقه والمعاونة عليه ، وضرب لذلك الأمثال مشتقة من الواقع المشاهد الملموس .

ومن هذه الأمثال ، أنه لا يكفى أن يصدر تشريع بوجوب ردم البرك ، لعصمة الفلاحين من أذى الأمراض التى يعتريهم بها البعوض ؛ فانه إذا قدر وردمت البركة أو البرك حول القرية فسرعان ما يحتفر سكانها بأيديهم غيرها لصنع الآجر أو لحاجة زروعهم إلى التراب يخلط بالسماد !

ولا يكفى أن يجرى الماء النقى إلى دورهم ليشربوا منه ، وينقوا كثيراً من الأمراض والأسقام التى تصيبهم من شرب الماء الكدر الذى كثيراً ما يلوث بألوان المكروبات ؛ ففى الغالب أنهم سيعدلون عنه إلى التروى من هذا الماء الكدر ، إيماناً بأن الماء إذا صفا من الطين لا يجدى على الأبدان .

ولا يكفى أن تقام المرافق فى القرى ليكفل للفلاحين قضاء حاجاتهم وتطهرهم ، وكف الكثير من عاديات الأمراض عنهم ؛ فأكبر الظن أن الفلاح مُتَوَلٍّ ، فى قضاء حاجته ، إلى الخلاء ، مؤثر الاستحام فى الترعة أو الجعفر الصغير إذا طلب ، يوما ما ، الاستحام ، وهكذا !

إذاً ، لا بد من أن يقترن هذا الاصلاح المادى بالاصلاح النفسى ، الذى يرمى إلى ترسيخ الاعتقاد فى نفس الفلاح والعامل جميعاً بأن

هذا الاصلاح الذى يراد له أمر نافع جداً ، لا بد منه ، ولا محيص عنه لمن يريد الحياة السعيدة ، ولو بمقدار ، الحياة الخالصة من التعاسة والأسقام والأكدار ، ولو بمقدار .

هذا الاصلاح الذى يطبع الفلاح والعامل على إدراك ما ينفعه وما يضره ، ويستكرهه استكراهاً ، بدافع من نفسه لا بقوة خارجية ، على ترك ما ألف من مكروه العادات ، ولو كان هذا الألف إرثاً منحدراً من ألوف السنين .

وأخيراً ، هذا الاصلاح الذى يشعر الفلاح والعامل ، أو فى الشعور أنه عضو ، بكل معنى الكلمة ، فى هذا المجتمع ، لا خير له إلا فى خيره ، ولا سعادة لشخصه إلا بسعادته ، يشعره أنه عضو حقاً فى هذا المجتمع ، ويملأ قلبه إيماناً بأن عضواً من الأعضاء لا يمكن أن يكون صحيحاً إذا كان البون معتلا سقيما .

فاذا جرى هذا الاصلاح فى طريقه ، وسلك من النفوس مسالكه ، فحينئذ لا يخشى أن يقاوم الفلاح أو العامل ما يراد لعيشة من حماية وترقية وإسعاد . بل لا يخشى أن يعتل على هذا أو يتثاقل عن الاستجابة لدعوة العاملين المصلحين . بل إنه ليرجى ، حينئذ أن يطلب الاصلاح جاهداً إذا أبطأت عنه وسائله . وإنه ليعين على تحقيقه بكل ما يمتد إليه عزمه . بل إنه ليوجه السعى فى الحياة ، أو يوجه صدراً عظيما من السعى فى الحياة إلى ما يجدى المجموع لشدة إيمانه بأن جزء متصل تمام الاتصال بهذا المجموع ، وأن كل خير يصيب هذا المجموع هو خير له ، ولو لم يعد على شمله ، من الجهة المادية ، بكثير ولا قليل !

وبعد ، فلقد يأخذك أشد العجب إذ ترى بلادنا ، والحمد لله على السراء ، سباقة إلى اقتباس أحسن النظم فى أكثر مرافق الحياة ، وسن أحكم القوانين وأدق اللوائح ، ووضع أجل المشروعات فى مختلف نواحى الاصلاح ، مما من حقه أن يكفل لنا الأمن ، والدعة ، والرغد ، والغنى ، ورفع المستوى العلمى والثقافى ، وتحريك الأيدى المعلقة ، ومنع التشرد والتسول الخ . . . مما لا تطمع أمة على ظهر الأرض فى مزيد عليه ، أو تتطلع إلى سعادة تتراءى وراءه ؛ ومع ذلك فنحن نحن ، والحمد لله على الضراء ، لا نكاد نتزحزح فى شئ أو نريم .

سر هذا ، فى مذهب الأستاذ دباب ، أن الاصلاح لا يجدى إلا إذا تهيأت لقبله النفوس ، بحيث يتلقاه الجمهور راضياً مغتبطاً .

وهذا حق لا ريب فيه ، على أن هناك علة جوهرية تتقدم هذه العلة ، وهى التى أحيس عليها بقية الكلام ، وهذه العلة هى أن الخمسين أو الستين عاماً التى عشناها محروسين السلطان ، معفين من الاضطلاع بالعظائم ، مقالين ، بالضرورة ، من احتمال التبعات — هذه السنون الطوال التى عشناها عيشاً آلياً أضعفت فينا الشعور الحق بالواجب إلى حد كبير !

نعم ، لقد أضعفت فينا هذه السنون الشعور الحق بالواجب إلى حد أن أصبح العامل منا إذا عمل ، سواء فى الأسباب العامة أو الخاصة ، لا يكاد يشعر بأنه يؤدى واجباً ؛ وإنما يسوقه إلى علاج ما يعالج خوف المسئولية ، وحسبان العواقب المادية . وكذلك جعل

سعينا بتحول إلى الاشكال والأوضاع : ما دامت هذه الهياكل تسقط عن المرء التكاليف ! أما اجتماع النفس ، وحد العزم ، وتجريد الهمة لأدراك الأغراض ، و إصابة الأهداف التى شرع لها المفتن ما شرع ، وأعد لها المصلح ما أعد ، فلقد صرنا من ذلك أبعد ما نكون .

الأمر كله لا يزيد عندنا ، مع الأسف العظيم ، على ملء الاستمارة ، أو سد « الخانة» ، أو « تخليص الفلم » كما يقولون ، وعلى ذلك يستحيل كثير مما نعد من وسائل الاصلاح هياكل لا تدب فيها شئ من الحياة ؛ ولأضرب لك ، يا سيدى القارئ ، بعض الأمثال ، لا أعدو فيها ما يقع لسمعك وبصرك فى كل صباح وفى كل مساء .

تصدر الأوامر المشددة إلى رجال البوليس بمنع التسول فى الطريق ، وكف الغلمان المتشردين من جامعى الأعقاب ونحوهم ، فاذا الشرط يجدون و يجهدون ، حتى تكاد تشعر بأن القاهرة مثلا قد خلت من كل متشرد أو شحاذ . وقد تظل على هذا الشعور أياما ، وقد تظل كذلك أسبوعاً ، ثم إذا المتسولون والمتشردون يظهرون لعينيك رويداً رويداً ، وهم يقومون بمهمتهم الشريفة بعين جندى البوليس .

ذلك بأن رئيسه كان يشدد عليه ، ويطالعه الحين بعد الحين ، فلما فتر عنه فتر هو الآخر عن الآخرين .

يقضى النظام الحكومى بأن يحضر الموظفون إلى مكاتبهم فى وقت معين ، وألا ينصرفوا عنها إلا فى وقت معين ، بحيث يجزى من تأخر عن الأول ، ومن تقدم على الثانى ، وقد تضبطهم بدفتر أو « بساعة »

ترقم وقت حضورهم مثلا ، وذلك رغبة فى سرعة إنجاز ما تعالجه المصالح من وجوه الأعمال ، وأنهم لينفذون هذا النظام راضين أو كارهين : ولكنك ، مع هذا ، تجد المسألة ليس من شأنها أن تشغل من وقت الموظف ساعة ، أو بعض الساعة ، تلبث بين يديه الأيام ، بل الأسابيع ، بل الشهور فى بعض الأحيان ، وكذلك تعوق المصالح العامة ، وكذلك تتعطل مصالح الناس .

ذلك بأننا نحضر فى الميعاد ، وننصرف كذلك فى الميعاد ، ألسنا قد خرجنا من العهدة ، وأمنا حتى سوء المقال ؟

ولقد يكون بعض الموظفين مرهقين بكثرة ما يعالجون من الأعمال ، ولكنهم ليسوا كثرة على كل حال .

وقس على هذين المثالين ما تهيأ لك القياس على أننى لا أحب أن أدع الكلام فى هذا المقام قبل أن أضرب مثلا ثالثاً قد يجهله كثير من القراء . ولعل فيه ما يروح عنهم بعد ذلك الحديث الأليم ، وإن كان هو أيضاً لا يخلو من العظة والاعتبار .

زعموا أنه فى عهد « السلطة » صدرت الأوامر إلى رجال الادارة بمصادرة جميع الأسلحة التى يحرزها الأهلون ، فجعل حضرات رجال الادارة وعلى رؤوسهم حضرات مأمورى المراكز يتبارون فى تنفيذ هذا الأمر ، استباقاً إلى إدراك الحظوة ، وتبوىء منزلة الرضا عند من فى يدهم السلطان .

ويسمع المأمور أن زميله فلاناً جمع من بلاد مركزه خمسة آلاف بندقية فى خلال الشهر ، فيأبى هو إلا أن يجمع ستة آلاف ، وهكذا ،

ويستمر التنافس بين حضرات المأمورين فى جمع البنادق حتى أقبلوا على العمد والأعيان يكلفونهم الهبوط إلى القاهرة لشراء كل ما تيسر لهم شراؤه من الأسلحة القديمة فى سوق السلاح !

وأخيراً ، عز على أحدهم ، ألا يعزهم جميعاً ، ويظفر دونهم من الحظوة بأعلى مكان ، فحشر إليه كل النجارين والحدادين فى مركزه ، وكان فى الوجه القبلى . وتقدم إليهم بأن يتفرغوا من كل ما بأيديهم إلى صنع بنادق لا تزيد على كعوب وأنابيب ، وشئ يشبه الزناد . وكذلك تم له أن يورد فى خلال عام ، وبعض العام ، نحو مائة ألف بندقية مصادرة من الأهلين !

ويشاء الله أن يرقى هذا المأمور ، فى إثر ذلك ، إلى منصب وكيل مديرية ، وما شاء الله كان !

وبعد ، فأعزز على أن أجلو عن نفوسنا هذه الخلال ! وما بى ، شهد الله ، إلا أن نتفطن إلى أمراضنا لنسعفها بالدواء الناجع إن شاء الله ، ولله در القائل : « أسر مبكياتك لا أسر مضحكاتك » ، فان من أبطال اليوم أضحكك فى الغد ، وإن من يضحكك اليوم لمبكيك طول الأبد .

على أننى لست اليوم متشائماً ، بل إننى متفائل ، والشكر لله ، أعظم التفاؤل ؛ متفائل لأننا أنشأنا ندرك واجبنا ، ونمهد لألوان التبعات عواتقنا من يوم صار إلينا السلطان فى بلادنا ؛ متفائل لأننا جعلنا ندرك ما فاتنا فى تلك السنين الطوال ، فرحنا نستدركه فى قوة وعزم ، وأرجو لها مزيداً على الأيام ؛ متفائل لأننا الآن ،

ولا ريب ، فى نهضة ترسل الحياه دراكا فى جميع نواحى الحياة
وحسبنا أن كنا إذا سيق الشاب من أبنائنا إلى الجندية ، شيعته أمه وإخوته وعماته وخالاته ، كما يشيع أعز الموتى ، وماذا بعد النواح والعويل ، ولطم الخدود ، وشق الجيوب ؛ حيث لا حرب ولا قتال ، ولا توقع حرب ولا قتال ؛ إن هو إلا تدريب عسكرى لاستعراض فى هذا المهرجان أو ذلك المهرجان ؟

أما اليوم والسيوف مسلولة ، وأفواه المدافع مفغورة ، والموت يتخطف بلا حساب من البر والبحر والهواء ، فهؤلاء شبابنا ، بل هؤلاء كهولنا يتبارون جاهدين فى إدراك الشرف بحمل السلاح ، فاذا شيعهم أهلوهم فكما تزف العروس ، وماذا أبعد أرن (الزغردة) وأحلى الغناء ؟

نحن فى نهضة قوية جليلة ، أرجو أن تجدى علينا ، أول ما تجدى ، قوة شعورنا بالواجب ، ومسارعتنا ، بباعث من أنفسنا ، إلى القيام به لأنه الواجب ، لا طمعاً فى ثواب ، ولا خوفاً من عقاب . وأن يكون ذلك الفتح فى القريب جداً ، إن شاء الله .

فى الاصلاح أيضاً

سمعت من الراديو فى ليلة من ليالى هذا الأسبوع أن زعماء الأحزاب فى إنجلترا ، وقاده الرأى فيها ، قد اجتمعت نيتهم على أن يقوموا بحملة شديدة فى جميع أرجاء الجزيرة يشرحون فيها للشعب الانجليزى أغراض الحلفاء من الحرب ، وكيف خاضوها ولماذا غامروا فيها ؟

أما أن زعماء الأحزاب على اختلاف مذاهبهم وتفرق نزعاتهم ، يتفقون على هذا ويبادرون إليه ، فذلك ما لم يقع عندى موقع عجيب ، لأن وطنية الانجليزى هكذا ، وخاصة فى الأيام الشداد ؟ وإنما الذى استرعى كل عجبى أن الشعب الانجليزى المثقف المستنير ، مابرح فى حاجة إلى من يقفه على السبب الذى حمل دولته على الاشتباك مع الألمان فى هذه الحرب الضروس .

على أن عجبى لم يطل ، فان الحلفاء إنما أعلنوا الحرب باسم الديموقراطية ، وإنما حشدوا جميع قواهم وكل كيدهم لقمع الدكتاتورية الصائلة المعربدة فى الأرض ، والتى إذا تركت وشأنها لا تنتهى عربدتها وعصفها بالأمم الوادعة عند حد . فمن حق هذه الديموقراطية على الرجال المسئولين أن يراجعوا الشعب نفسه ، ويدلوا إليه بحجتهم

فيما أقدموا عليه ، وما يجشمونه فى سبيله من التضحيات الضخام ، وأن يبينوا للناس ماعسى أن يكون قد تَبَهَّم عليهم من العلل والأسباب حتى يحيطوا بالجليل والدقيق مما لا ضرر فى علم الجمهور به وظهوره عليه . وفى هذا فوق ذلك بافيه من زيادة الاستحماس للحرب ، والشد على الغرائم للقضاء على العابثين بالحضارة ، المفسدين ، وأقول زيادة لأنه بحسب وطنية الانجليزى أن يسمع من حكومته و برلمانه النفير إلى القتال ليركب رأسه أو يحتويه ميدان ، سواء فى البحر أو فى الأرض أو فى السماء ! .

ولا يذهب عنا بعد ذلك أن من أخطر الأسلحة التى يقاتل بها الألمان ، إن لم يكن أخطرها جميعاً ، هو سلاح الدعاية الذى لا يتحبس ولا يتوقف ، ولا يسكن ولا يبرد ، ولا يهدأ ولا يفتر ، والذى يسلكون به كل بلد و يرمون به كل قربة ، وينفذون به بالرديو إلى كل بيت ووسيلتهم فيه هى الكذب المتوالى ، والأفك المتدارك ، مصوراً فى صور ، ومجلواً على أشكال وأوضاع ، قصداً إلى توهين العزائم و إظلال النفوس باليأس . ولا تنس النصيحة الترابية القاتلة : أكذب ، ثم أكذب ، ثم أكذب !

و إذا كان الانجليز هو آخر من تبلغ فيه مثل هذه الدعاية أو تنال من عزمه الجبار على الصراع ، وخاصة إذا كان صراعاً لمجد الامبراطورية فلا شك فى أن من الخير ألا يترك هذا الوطنى الشجاع المتطوع وفى نفسه من أغراض الحرب ، التى يحتسب فيها بدمه شئ أو أشياء !

إذاً فليس من العجيب ، أن يجرد من زعماء الأحزاب الانجليزية

وغيرهم من أعلام الرأى حملة لهذا الغرض أو حملات . ولكن العجيب كل العجب ألا نصنع نحن مثل هذا ونحن أحوج إليه بأكثر من الكثير !

وإنى أبادر فأقرر أن حملاتنا التى من هذا الطراز لا تحتاج ، والحمد لله ، إلى تظاهر الزعماء السياسيين واشتراكهم فى هذا السعى ، لأننا لسنا بحاجة إلى من يدلى إلينا بالأغراض التى من أجلها دخلنا الحرب ، لأننا لم ندخل بعد حرباً ، أما إستحماس الجماهير وشد عزائمه لخوض الحرب ، إذا أذن النفير ، فانه ليغنينا فى ذلك : « يا قاعد فى دارك والعالم فى نار » وأخواتها . فلقد انتفخنا استحماساً بكثرة الاستماع إليها كل يوم ، فى الصبح ، والظهيرة ، والأصيل ، ومغرب الشمس ، وفى جوف الليل ، حتى أصبحنا لا ندرى أين ننفث بعض هذا الذى نغلى فى صدورنا من شدة الاستحماس !

اللهم إن الحملات التى تحتاج إليها بلادنا أشد الاحتياج إنما هى حملات إجتماعية بحتة لا صلة لها بالحرب ، ولا سبب لها إلى الحزبية ولا الأحزاب .

نحن ألقينا حرباً أم لم نلق حرباً ، محاجون إلى الاصلاح فى شتى نواحى الحياة . وإذا كان توقع الحرب والاستعداد ، بكل ما فى الطاقة ، للحرب لم يلفت نهضاتنا العظيمة عن التطلع إلى كثير من النواحى ، ولم يثن القائمين على الاصلاح عن معالجة ألوان من المشروعات ، قصداً إلى الاصلاح المنشود ، والحتيق بأمة تتوثب للمجد توثباً ، وتبقى الحياة كما ينبغى أن تكون الحياة — إذا كان هذا

هكذا ، فان من الحق علينا ألا نغفل ، أولا وقبل كل شى ، حقيقة ثابتة ، هى أساس كل بناء ، وجوهر كل إصلاح ، وهذه الحقيقة هى الثقة ، فاذا لم تكن ثقة فلا بناء ولا تعمير ، ولا إصلاح ولا فلاح .

وأحوج ما يحتاج إلى بث الثقة وعقدها فى النفوس هى بلاد الريف على وجه خاص .

وبعد ، فأنت خبير بأن أى علاج بعمل أو بتشريع ، يراد به إصلاح شأن الجماعات ، ورفع مستواها العقلى والخلقى ، والحط من أعباء تكاليف العيش عنها و إتباؤها حظاً من أسباب السلوى والرفاهية لا يمكن أن يؤتى ثمرته ناضجة أو فجة ، فى بعض الأحيان إلا إذا تعاونت عليه الجماعة . ولا يمكن أن نتعاون الجماعة على عمل ما إلا إذا سادت الثقة ، ثقة الأفراد بالأفراد ، وثقة الأفراد بالجماعة ، وثقة الجماعة بالمجموع . وهذا كلام بديهى لا يحتاج إلى نظر واستدلال ، على تعبير أصحاب المعقول . و إلا فكيف يتهيأ للا فراد أن يتعاونوا على خير يعمهم ، ويعود على شملهم ، فى حين لا يثق أحد منهم بأحد ، ولا يقدر فيه صدق النية ، ولا رغبة الخير لغيره ، فرداً كان أو جماعة ؟

وهنا أرى من واجبى الوطنى أن أصارح بحقيقة مؤلمة ، ولكنها هى الحقيقة ، الحقيقة الواقعة ، التى لا يجدى فى زوالها تجاهلنا ، تخففاً من ألم الشعور بها ، أو تظاهراً بالوطنية المزيفة المزورة . هذه الحقيقة هى أن حكم الاستبداد والظلم الذى خلت به القرون الكثيرة ، قد طبعته على سوء الظن وفقدان الثقة ، سواء بالأفراد ، أو بالجماعات ،

أو الحكومات . ولذلك تراه شديد الحذر فى غير موضع لأى حذر ، حتى لقد يستشيرك فى بعض شأنه ، فتشير عليه بالرأى صادقاً مخلصاً ، فيعدل فوره إلى عكسه لأنه لم يقدر فيك إلا غشاً وخديعة وكيداً . إذاً فالخير كله فى العدول إلى مانهيته عنه ، وحذرته منه .

ولا شك فى أن أبلغ ما يقعد بالفلاحين المصريين عن التعاون على ما يجديهم ، ويدفع الأذى عنهم ، ويعود بالخير الكثير عليهم ، هو فقدان الثقة بينهم ؛ ولقد تراهم يساهمون فى أعمال تعاونية ؛ ولكننا نكون كذابين وغشاشين ، ومدافعين لكل إصلاح اجتماعى يراد إذا زعمنا أنهم يخفون إليها من تلقاء أنفسهم ، أو بباعث من شعورهم وتقديرهم لما فيها من نفع وخير . ولكن فتش عن العمدة ثم فتش عن المأمور ، ثم فتش عن المدير ، ولعلك محتاج إلى التفتيش أيضاً عما وراء المدير !

ولعلى فى غنى عن إيراد الأمثلة على هذا ، فهى من الكثرة والحضور بحيث يعد إيرادها ضرباً من العبث ليس فيه غناء !

على أننى أروى فى هذا الباب حكاية لا تخلو من تفكيه ، أرى القارئ محتاجاً إليه بعد كل هذا الجد الأليم ، وهو على كل حال من باب « وشر البلية مايضحك » ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

من ثلاثين سنة أو تزيد قليلا بدا لبعض مديرى الأقاليم ، أو أنه فى أغلب الظن قد أوعز إليه من بعض السلطات العليا ، أن يدعو من قبله من الأهلين إلى المساهمة فى عمل ذى صبغة اقتصادية ، تغل المائة من رأس ماله أربعة فى العام . ويلح المدير كما هى العادة

على مأمورى المراكز ، ويلح هؤلاء على عمد القرى ، ويلح هؤلاء على الأهلين : ولم يكن فى يد هؤلاء فاضل من مال ، إذا لم تكن السنة سنة رخاء . فماذا لعمرى يصنعون ليتعاونوا على هذا الخير الاقتصادى العظيم ؟

اللهم لا حيلة لهم إلا فى أن يعوذوا بالمرابين ، فيقترضوا منهم المائة بخمسة عشر ، وبعشرين ، وبثلاثين ، ليثمروها فى هذا المشروع المبارك الذى تغل مائته فى العام الأربعة لا تزيد !

وهذه الحكاية ، ولا ريب ، ستذكرك حديث جمع السلاح فى عهد السلطة ، وقد أوردته عليك فى « الثقافة » من بضعة أسابيع . وهذه وتلك إذا اختلفتا فى الموضوع فكلتاهما تلتقيان فى الدلالة على الأسلوب الذى يجرى عليه حكام الأقاليم فى تنفيذالمشروعات التى يراد بها الاصلاح من أى نوع كان ، وهذا من شأنه حتما أن يزيد خلة سوء الثقة التى طبع عليها الفلاح المصرى من الزمان البعيد !

ومن أغرب الحوادث التى صادفتنى فى هذا الباب ، أننى ذات عشية ، وذلك من نحو اثنى عشر عاماً ، طلبت ميدان السيدة زينب ، رضى الله عنها ، لأستقل الترام إلى محطة مصر ، إذ كنت أسكن فى خط المطرية ، فرأيت خلقاً كثيرين ينتظرون ، وتبين أن الترام تعطل فى بعض الطريق لأمر ما ، وطال انتظار الناس ؛ وكلما تقدم الزمن كثر المنتظرون . وجعلوا ينتظمون جماعات يتحدثون فى أمر الترام ثم فى غير الترام . وفيما هم كذلك إذ يقبل اثنان من الفلاحين ،

تضطرب أسنانهما بين الأربعين والخمسين ، فيسأل أحدهما أول رجل من أول مجموعة يلقاها عن موقف الترام الشاخص إلى باب الحديد ، فيدله عليه ، ويشير بيده إليه ، فيسأل من يليه السؤال نفسه فيجيبه بالجواب نفسه ، ثم يسأل من يليه كذلك ، فيكون الجواب ، بالضرورة كذلك . حتى إذا فرغ من سؤال هذه المجموعة فرداً ففرداً ، تولى عنها وأقبل على غيرها يسألها هكذا ، وهكذا . وأنا فى أثناء ذلك ألاحظه ودمى يغلى من الغيظ فى عروق . ورأيت من الخير أن أبعث الطمأنينة فى نفسه ونفس صاحبه ، فاكسب الأجر فى هداية السائل الضال من جهة ، وأريح نفسى من شهود هذا الالحاح الشنيع من جهة أخرى .

وتقدمت إلى الرجل وأخذت بيده ، وجررته إلى الموضع الذى كنت أنتظر فيه . وقلت له : يا سيدى ! أنا أيضاً ذاهب إلى الباب الحديد فاركب أنت وصاحبك معى ، وسننزل فى الميدان معاً . ويشاء الله ويقبل الترام . ويثب الناس إليه وثباً متسابقين فى إحراز المجالس ، ويثب الفلاحان كذلك ، وصادف أن وقع مجلسهما فى الدكة التى أمامى من المركبة مباشرة ، ولم يكد يستقر بهما المقام حتى مال ذلك الرجل السآل إلى من على يمينه يقول له : صحيح ياخويا العربية دى رايحه باب الحديد ؟ فيجيبه جاره : أن نعم . . . فيمط عنقه إلى الجالس بجواره ويوجه إليه السؤال نفسه ، فيبادره بالجواب نفسه . فينتقل بالمسألة إلى الدكة التى أمامه ، حتى إذا فر الجالسين عليها بالسؤال واحداً

فواحداً لم يرعنى إلا محاولته التعلق بمتكأ الدكة التى أمامه ليبلغ رأسه التى أمامها ، فجذبته من فضل عباءته وقلت له : يا رجل ! ألم أقل لك إننى أنا أيضاً ماض إلى باب الحديد ؟ فاطمئن وكن حيث أكون !

ووالذى بيده نفسى ، لقد كان جوابه الحاضر العاجل : « ومنين جانى إن ذمتك نضيفة ؟ »

ولقد يكون هذا الرجل غالياً مسرفاً فى سوء الظن بالعالم كله ؛ ولكن هذه الخلة على أى حال ، شائعة فى سواد الفلاحين المصريين .

وبعد ، فيأيها العاسلون ! إذا كنتم تبغون الاصلاح حقاً ، ولست أشك فى أنكم تبغونه حقاً ، فعليكم أولا أن تقنعوا الفلاح ، على وجه خاص ، أنه ليس وحدة منفصلة مستقلة ، بل إنه عضو من المجموع ، شأن اليد أو الأذن أو الأنف من الجسم ، يقوى بقوته ، ويضعف بضعفه ، ويموت بموته ، وينعم بنعيمه ، ويشقى بشقائه ، ويعز بعزه ، ويذل بذله !

وعليكم ثانياً أن تشيعوا الطمأنينة فى نفس الفلاح ، وتردوا الثقة بالناس عليه ، فلا يعود مايرى أحداً من الناس إلا قدر فيه عدواً بكذبه ويغشه ، ويسعى ، جاهداً ، إلى المكر به والكيد له ما وجد إلى ذلك سبيلا !

وعليكم ثالثاً أن تكونوا موضع الحكام من قلبه ، فلا ينظر إليهم نظر الضحية للجزار ، أو نظر الطير للصائد ، على تعبير الزعيم الأعظم ،

رحمة الله عليه ، بل ينظر إليهم على أنهم كافلو أمنه ، ومتعهدو رفاهيته ويسره ، ومرشدوه إلى طرائق خيره ونفعه .

فهلم ، جردوا الحملات من الدعاة القادرين ، حتى ينتلخوا من صدور الفلاح ما غرست عهود الظلم والاستبداد . فاذا بلغتم هذا الذى فانتظروا من مساعيكم خير الثمار ، والله تعالى نصير العاملين .

فى الطفولة المشردة

من بضع ليال خلت سمعت من الراديو صدراً من الأحاديث القيمة والأزجال الطريفة التى ألقيت فى حفلة « الطفولة المشردة » . وما إن انصرف الرادبو إذاعة أخرى ، حتى شغل حدبث هؤلاء الطفل المشردين ذهنى ، وملك على نفسى .

هذا بصرى يتعثر فيهم فى كل شارع من شوارع القاهرة . وكل جادة من جوادها ، وكل زقاق من أزقتها ، لا يخلو منهم مكان ، فى ليل أو نهار !

ناحلو الأجسام ، بادو العظام . حتى كأنما شدت الجلود عليها شداً ، فلم تفسح بينهما لغير العروق مسلكا . وهذه وجوه مغبرة ، كأنها بعثرت لتوها من جدث . وهذه عيون حيرى ، لا تكاد تقع على شئ حتى تتحول مسرعة ، خشية أن يعترها المكروه من الناحية الأخرى ، فهى فى فزع دائم وروع مقيم . دائمة الوثب والتوارى خلف الجدران ، تحسب كل صيحة عليها . ولا تحسب عيناً مفتوحة إلا لتصيبها ، ولا رجلا ماشية إلا لتركلها ، ولا يداً مرسلة إلا لتتهيأ للبطش بها .

ولقد تحسب ، فى بعض الحين أنها أصابت من هذا العدو

(جمهرة الناس) الفرة ، ووافقت منه الغفلة ، فسرعان ما تنقض إنقضاض العقاب على عقبة سيجارة . فاذا هى التقطتها ولت مسرعة تضرب ذات اليمين وذات الشمال ، فراراً من الطلب الدّرّاك ليس له انتهاء ؛ ولقد تراها فى تلك اللحظة ، لحظة الأمن ، وهى تنبش الزبل فى وعائه القائم فى بعض الطريق ، لعلها تصيب كسرة أو فضالة من طعام !

هى أشباح تغدو وتروح كأنها أضغاث حلم ثقيل ! وكثيراً ما تسمع منها سعالا ينبيك عما يمزق الرئة ويتطلع منها إلى الضلوع !

جِرمٌ يُجنّ أخبث الأمراض ، عليه خرقة تحمل بذور أفتك الأمراض ، فشأنه شأن ضغث من الهشيم قد اشتعلت فيه النار ، والرياح ترمى بشرره هنا وهناك ، فلا تأتى عليه النار إلا وقد تسعرت فى كل ما حولها من الأشياء .

مخلوقات معذبة ، وهى فى الوقت نفسه حشرات سامة تفتتى العلل والأوباء فى جماعات الأصحاء .

والآن يحسن بنا أن نلم إلمامة يسيرة بالناحية الخلقية من هؤلاء الطفل المشردين . فليس الخطب فى الصحة بأشد من الخطب فى الأخلاق . وأنت خبير بأن هؤلاء لا يخرجون إلا من أحط البيئات ، وأشدها جهلا ، وأعظمها إمعاناً فى الفقر والأعواز . وهل يبعثهم على عيش التشرد إلا أن كافليهم قد ثقلوا بهم ، وصفرت أيديهم عما يرزقهم ويجمع شملهم ؟ ولقد يكون هؤلاء لكافلون من الآباء أو الأعمام

أو الأخوال أو الأخوة الكبار أو أزواج الأمهات — قد يكونون ممن يؤثرون الدعة ، ولا يجشمون النفس سعياً ، فلا يرون إلا أن يتركوا هؤلاء الأطفال فى الطرق ليشحذوا ويجمعوا أعقاب السجاير ، ويسلوا من جيوب الغافلين ما تطوله أيديهم ليظلوا هم فى أكسار الأكواخ ضاجعين هانئين !

لم تفتح قط عين مخلوق من هؤلاء على دين أو على خلق أو قانون أو أى شئ من آداب السلوك فى هذا العالم ؛ فهو إنسان ، إن صدق هذا التعبير ، مفقود الضمير . هو مخلوق لا يفرق بين الخير والشر ، ولا بين الفضيلة والرذيلة . ولا يميز الحرام من الحلال ولا يعرف ما يسوغ فى العرف وما لا يسوغ . وإذا كان مسوقاً ، بحكم الغريزة الحيوانية ، إلى ما يسد الجوع ، فانه يلتمس القوت بكل ما يتهيأ له من الوسائل ، من تكدٍّ وجمع مايعود على شمله من أعقاب السجاير ، والفحص عن فضلات الطعام ولو فى المزابل ، والسرقة ما وجد إليها السبيل . فاذا رأيته مكفوفاً عن السرقة والتلصص ، فى وقت ما ، فما كان ذلك لأن له ضميراً يزجره ، ويخوفه عاقبة السرقة عند الله وعند الناس ، بل لأنه يرى بعينه أن من يؤخذ فى سرقة ، يعاقب بالحبس المرهق ، أو بالجلد الموجع الأليم !

ولقد ترى هذا المخلوق ، إذا خلا بأمثاله ، يكاثر بما اكتسب فى يومه من الرذائل من سرقة أو غش أو إيقاع أذى بمن لم يلحقه منه أذى ، أو بتضليل من استهداه السبيل . يفعل هذا فى زهو يشبه الافتتان !

فاذا رأيت هذا منه فاعذره ، فهو لا يدرى ألبتة أنه يجرم ، بل أنه لا يدرى ألبتة ما الاجرام !

وبعد ، فاذا جاشت فى صدر هذا المخلوق عاطفة ، فالحقد الشديد على هذا المجتمع الأثيم الذى لا ينفك يؤذيه أو يحاول أذاه أنى وجده ، و يجهد فى الحيلولة بينه وبين الكسرة يمسك بها الرمق ، ولو التمسها فى وعاء السرجين ، وينفس عليه حتى بالضجعة فى ظل جدار على عذار الطريق !

هو مملوء حقداً واضطغاناً على هذا المجتمع ولو وجد السبيل لحرقه بنار السعير . فاذا كتبت السلامة من العلل لهذا النتقى الصغير ، وقدر له أن يشب ويكبر ، فانظر أى صائل فاتك من هذا الغلام يكون ؟ فاتك حاشاً له أن يزجره عن أعظم الاجرام زاجر من ضمير أو دين أو من رحمة أو من قانون !

وبعد ، فان هذا الصنف من الأطفال يشغلون مع الأسف العظيم، نسبة غير يسيرة من مجموع الأمة . فلا ينبغى أن يزهينا إطراد الزيادة فى العدد ، إذا كان قدر عظيم من الزائدين من هذا الطراز !

على أنه لو تيسر لنا أن نسقط جمع هؤلاء من التعداد ، لأنه لا جدوى منهم على الأمة ، بل لأنهم غير أكفاء للحياة . لو تيسر لنا أن نستطهم من الحساب لهان الخطب ، ولكنهم فى جسم الأمة عضو متأكل ، لا يلبث أن يمتد بالفساد وأسباب العطب إلى ماحوله من الأعضاء . فهم أداة متنقلة جوالة لنشر الأوبئة فى الصحة

وفى الأخلاق . إلى ما يؤذون به غيرهم من السرقة والعدوان .

إذاً فكيف الحيلة فى دفع هذا البلاء الكبير عن البلاد ؟

اللهم إننى لا أظن أن العلاج النافذ فى أن نبث الجمعيات ،ونجمع الأموال لنتلقط هؤلاء الغلمة من الطرق والأزقة ، ونحشرهم فى الملاجئ والمصحات .

نعم ، ليس يجدينا هذا كثيراً فى دفع هذا البلاء ، مادامت هذه البيئات قائمة على هذه الصورة ، وما دامت الأرحام فيها تدفع الأطفال من غير حساب !

إن الداء لا يحسم بتلقط هؤلاء المشردين وحشرهم ذلك الحشر ، مهما تهيأ لنا الملاجئ ويحصل فى أيدينا من جلائل الأموال .

لست أزعم أن إنقاذ هؤلاء الأطفال بايوائهم إلى الملاجئ . وتعليمهم ما يفتح عقولهم ، وينير بصائرهم ، ويوقظ ضمائرهم ، وتمرينهم فى ألوان من الحرف تجديهم إذا انحدروا إلى ميدان الحياة . لست أزعم أن هذا القدر لا تجدى ولا يفيد . بل أزعم أنه يفيد بعض الفائدة على أن هذه الفائدة لا تعدد تلطيف العرض ، ولكنها لا تحسم العلة ولا تجتث جرثومة الداء .

إن من تدفع الأرحام كل يوم من هذه البيئات هم أضعاف أضعاف من يستطيع الخيرون السعى إلى إنقاذهم على هذا الوجه ، بحيث يرى المصلحون أن سيلهم سيظل متدفقاً على المدن لا ينقطع له مدد .

والرأى الذى أرى ، أن يبدأ المصلحون العاملون ببحث هذه المعضلة الخطيرة من عند أولها ، لا من عند آخرها ، بالنظر فى رفع

المستوى العقلى والصحى فى تلك البيئات الوخيمة ، وتقييد الزواج بالقدرة على كفالة الولد ، أو السعى إلى منع تسرب الولد إلى هذه الحياة ، مادامت هذه سبيله فى الحياة . على أنه يجيز ذلك أئمة الشرع الكريم . ولا ضير ، بل من الخير أن يظل هذا الانقاذ قائماً حتى يكتب لجسم الأمة البرء والشفاء ، من هذه العلل والأدواء .

فى الاجراءات

فى آخر تقرير أصدره اللورد كرومر ، المعتمد البريطانى ، عن مصر ، وكان ذلك ، على ما أذكر ، فى سنة ١٩٠٥ أو ١٩٠٦ ،أراد أن يشهر الادارة المصرية تشهيراً قاسياً ، فروى الحادثة الآتية ،قال: ضلت أتانة صغيرة لرجل من أهل قرية فى الصعيد الأعلى ، فبادر بابلاغ العمدة ، وهذا أبلغ « النقطة » وهذه أبلغت المركز ، وأنشأ المركز يتخذ الاجراءات اللازمة فى مثل هذه الحال ، من التحقيق مع الرجل أولا ، ومع الجيران ثانياً ، ومع من عسى أن يكون قد رأى من الناس أو سمع ثالثاً . ثم جعل يراسل المراكز الداخلة فى سلطان المديرية ، وهذه تراجع فى الأمر ما دونها من نقط البوليس . وبعد لأى جعل يراسل ، بوساطة المديرية ، المحافظات والمديريات الأخرى . وهذه تراجع مايدخل فى سلطانها من الأقسام والمراكز . وهذه تراجع مادونها من نقط البوليس فعمد القرى ، وهكذا . ودوم البحث عن الأتانة الضالة ، على هذا الأسلوب ، بضع سنين ! ولقد فاتنى أن أذكر لك أن صاحب الأتانة قوّمها ، فى أثناء التحقيق ، بثلاثين قرشاً صاغاً لا تقل مليما !

ولقد بدا للورد كرومر أن يحصل الجهود والأموال التى بذلتها

الحكومة فى هـذه السبيل ، وكيف سوت أكواماً من الملفات « الدوسيهات » ، وما برى فيها من الأقلام ، وما نفد من المداد ، وما سود من الورق ، وما اضطرب به البريد فى أرجاء البلاد ، وما استهلك من وقت الموظفين الذين لا يحصون عداً . ومع هذا لم تهتد الادارة ، إلى تلك الحمارة . وهذا مع الأسف العظيم .

وحدثنى الثقة الصادق ، وذلك من ثمانية عشر عاماً ، قال : ضلت حمارة (أبضاً) لرجل بقيم فى قرية من أعمال إحدى المديريات فى الوجه البحرى ، فأسرع إلى إبلاغ المركز ، وهذا أحال التحقيق على أحد حضرات معاونى الادارة ، ولم يمض غير قليل حتى قدم إلى ديوان المركز ، رجل آخر وهو بقود حمارة قال إنه رآها على «السكة الزراعية » وليس يقودها أو يسوقها أو برعاها أحد . فأحيل التحقيق فى هذا البلاغ على حضرة معاون إدارة آخر ، وظل ذلك يحقق إبتغاء الاهتداء إلى الحمارة ، كما ظل هذا فى الحجرة المجاورة ، يحقق ،إبتغاء الاهتداء إلى صاحب الحمارة . وطالت الحال على هذا أشهراً ، ولعلها كانت تطول سنين ، لولا أن المصادفه السعيدة وحدها كشفت عن الصلة بين الحمارة وفاقدها ، فردت عليه بعد استيفاء الاجراءات أيضاً !

وألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالأياب المسافر

وإليكم ، يا معشر القراء ، ما هو ألذ وأبدع . . .

لاحظ مأمور قسم ثانى أوقاف ، وذلك فى سنة ١٩١١ ، وكنت يومئذ موظفاً فى سكرتارية ديوان الأوقاف — لاحظ هذا المأمور أنه كلما مر فى ميدان العتبة الخضراء وجد دكاناً بعينه مغلقاً ، وهذا الدكان داخل فى وقف المكاتب والمدارس . فلما كثر ذلك وطال عليه الزمن ، كتب إلى الديوان العام يسأل عن السبب فى انغلاق هذا الدكان تلك المدة الطويلة ، فى حين أنه مما يغل أغلى الأجور؟

وانتهت المكاتبة إلى القسم المختص ، ولكنه بعد البحث والتفنيش الأسابيع أو الأشهر ذات العدد ، لم يهتد إلى السبب أيضاً . فجعل يراجع الأقسام الأخرى التى يقدر فيها علما بالخبر ، واحداً بعد واحد، فلم تهتد هى الأخرى إلى شئ أبداً !

وأخيراً ، وأخيراً جداً ، تنبه أحد الموظفين إلى أن دكاناً من دكاكين وقف المكاتب والمدارس فى العتبة الخضراء كان يقوم فى شأنه نزاع بين الديوان وبين المستأجر ، وهو من رعايا إحدى الدول الأجنبية .

وهنا جد القسم فى الطلب ، وأنشأ يقص الأثر أعنى أثر الورق ، حتى انتهى إلى أن ذلك النزاع رفع إلى المحكمة المختلطة وموضوعه تأخر المستأجر عن أداء الكراء . وبعد الحكم ابتدائياً عليه بأداء المتخلف والاخلاء ، رؤى أن الرجل قد يبعد أجل التسليم باطالة مدة النزاع ، ولا يعرف له مال يرجع عليه ، وهو لم يدع فى الدكان إلا بضعة كراسى ونضداً (ترابيزة) من القش ، وكل ذلك لا يقوم بأجر أسبوع واحد من أجر هذا الدكان .فرأى قسم القضايا ، إقتضابا

لهذه الخسائر أن يصالح هذا المستأجر على تسلم الدكان . أما المتأخر من الكراء فالعوض فيه على الله !

المفتاح فى الدسيبه

ولما اهتدى أخيراً إلى حضرة المحامى الذى تولى الصلح عن الديوان ، وسئل كتابة عن مفتاح الدكان ، وقع « أشر » على الورق رحمة الله عليه ، « المفتاح فى الدسيبه » ! وكذلك تهيأ فتح الدكان ، بعد ما أصدأ غلقه طول الزمان !

على طرف وقفه

على أن الرواية لم تتم فصولا ، فانه لم تمض بضعة أسابيع على هذا الكشف الأثرى الخطير « المفتاح فى الدسيبه » حتى رفعت إلى المجلس الأعلى مذكرة نوج جبينها بهذا العنوان : « أطلب رفع مبلغ . . . على طرف وقفه » ، وهذا تعبير مصطلح عليه ، كلما عرض مايدعو إلى التجاوز عن قدر من المال عجز الديوان عن تحصيله لافلاس أو هرب أو نحو ذلك .

أتدرون ، يا سادتى القراء ، ما مقدار هذا المبلغ الذى رفع على طرف وقفه فى هذه القصة الطريفة ؟ إنه لا يزيد على بضع عشرات وأربعمائة وألف جنيه فقط لاغير !

ولقد كان هناك إلى وقت قريب ، تقليد مأثور ، مقدس مرعى

عند الكثرة من موظفى الحكومة . وهذا التقليد المقدس هو «ركن» الورق فى الأدراج قبل إنجازه والنظر فيه . وهذا « الركن » تتفاوت مدته بتفاوت العوامل التى تضطر الموظف إلى استخراجه وتحريكه . فاذا ما بادر أحد الموظفين بانجاز ما بين يديه من غير قوة مرغمة قاهره ، اتهم من هذه الكثرة بالغفلة ، وعد « غشيما » حيناً ، ومجازفاً أحياناً !

وبسبب تعطل مصالح الناس ، بحكم هذا الحال ، وضياع المنافع عليهم ، فى بعض الظروف ، نجمت فى مصر مهنة لا أحسبها معروفة لأية أمة من أمم العالم ، وكانت تدر على محترفيها المال بقدر غير يسير .

ذلك بأنك إذا طفت فى الصباح بالمقاهى التى تقرب من دواوين الحكومة ، رأيت طوائف من الأفندية يجلسون وعيونهم تشك كل صادر ووارد من الناس ، ومن سكان الريف على وجه خاص . وهم يدعون : « الأفندية اللى يجروا ورا الورقة » .

فاذا ما كانت لأحد حاجة فى بعض الدواوين أتحف أحد هؤلاء بريال أو بنصفه مقدماً « ليجرى عنه وراء الورقة » وسرعان ما يشمر عن ساعده ، ويهبط على حضرة الموظف الذى بين يديه المسئلة ، أو على الصحيح فى درج مكتبه . ولا يزال به حتى يستخلص الأوراق منه . ثم يمضى وراءها إلى موظف آخر ، ثم إلى آخر ، وهكذا لايزال يحجل بين سى مرسى أفندى ، وسى عبدالتواب أفندى ، وسى خلة أفندى ، وسى ستى أفندى يلح فى رجاء هذا مره ، ويضحك هـذا مرة ، ويروى لذاك حديثاً طريفاً ، ويتشفع إلى آخر بأحب الناس

إليه وأكرمهم عليه ، حتى يفضى بالمسئلة إلى الرئيس المختص ، وكذلك ينتهى الأمر بسلام . ويشترى الرجل وقته ، ومنافعه وكرامته التى تبتذل كلما طلع على موظف بين يديه أمره يشترى الرجل كل هذا بدراهم معدودات ، ويستخرج حقه من لهوات الآساد ، والله على كل شئ قدير .

وبعد ، فلقد كان هذا كله ، وكان أعجب من هذا كله ، فى وسائلنا الادارية ، إلى وقت قريب . أما الآن فلا أدرى ولا أظن . فاذا كانت قد بقيت منه بقية فأحر بهذه النهضات القوية أن تكنسحه بين يديها ، وتطهر الدواوين الحكومية من هذا العفن الذى يضرب فى مصالح الناس بهذا القدر الجسيم .

خواطر فى الصيف

بين الصيف والحر

قبل كل شئ ينبغى أن نفرق بين الصيف والحر . فالصيف هو صدر من العام له من الأيام مبدأ ونهاية رسميان ، يعرفهما أصحاب الفلك ، وتدل عليهما التقاويم ، أما الحر فهو وقدة الجو وسخونة الهواء . على أن بين الصيف والحر علاقة هى أن الصيف ظرف والحر مظروف ، أعنى أن الحر يقع ، عادة فى فصل الصيف ، كما يقع البرد، عادة ، فى فصل الشتاء ، وإن كانت تختل هذه العادة فى بعض الأحيان ، فيلفح الحر فى هذا كما يقرس البرد فى ذاك .

وإننى أنتهز هذه الفرصة فأقرر أن من التجوز الشديد تقسيم الفصول فى بلادنا إلى أربعة ، أسوة بكثير من البلاد الأخرى : صيف ، فخريف ، فشتاء ، فربيع . وأقول : من التجوز الشديد ،لأننا لا نكاد نحس هنا إلا حراً وإلا قراً ، فاذا اعتدل الجو فى بعض الأيام فذلك نادر لا يستقيم به القياس فى الأحكام . وإلا فخبرنى بعيشك أين الربيع فى مصر ؟ اللهم إن أكثره لمحدود فى وقدة الحر ، وصدره منكمش فى قبضة الشتاء !

ثم أين الخريف ؟ أستغفر الله ، فالخريف فى بلادنا أعرف من

أن تلتمس له وجوه التعريف ، فهذه الحميات أشكال وألوان ، وهذه الأوباء صنوان وغير صنوان ، من تيفود وتيفوس ، ومن أنفلونزا تقصف الأعمار وتخترم النفوس .

الصيف

ولقد تسألني : أي الفصلين أحب الفصلين إلى أهل مصر ؟ فأجيبك من فوري غير متردد ولا متفتر : إن أحب الفصلين إلى المصريين ، على وجه عام ، هو الصيف . الموسرون والبائسون فى هذا الايثار بمنزلة سواء ، و إن اختلفت فيه السبل ، وتباينت الأسباب والعِلل .

فالموسرون يحبون الصيف لأنهم يشدون فيه الرحال إلى أوربا ليصيبوا من اللهو واللذة إلى منتهى الجهد ، ويبلغوا الصبا أو التصابى غاية الأثر ، فاذا صرفهم عن الشخوص إلى الغرب صارف ، فهناك التسع فى قصور الرمل ، والتقلب فى المتع على سيف البحر (البلاج) .

وأما ثلاثة أرباع الموسرين وأنصافهم ، وأعنى جمهرة الموظفين ، فيحبون الصيف لأنهم ينحررون فيه من كد العمل ، ويخرجون فيه بالاجازات السنوية إلى الغرب أو إلى الثغور المصرية ليصيبوا مايصيب الموسرون ، فمن لم يستطع هذا ولا هذا فحسبه الراحة والدعة ، وهيهات أن تضيق به الدنيا وفى الضواحى سعة . وطلاب العلم وسائر التلاميذ ، ففى الصيف عتقهم من رق المذاكرة والدرس ، و إطلاقهم من إسار الجسم و إسار النفس .

هذا ما كان من أسر الموسرين وأشباه الموسرين ، والوجه فى فى إيثارهم للصيف وتعجلهم لمقدمه طوال العام . أما المقترون البائسون فلعل حبهم للصيف أشد ، و إيثارهم له أعظم . فقد علمت ، حفظك الله أن برد الشتاء يحتاج إلى التدثر وتلفيف عامة الجسم بمختلف الثياب ، وقد لا يغنى منها إلا المتين الصفيق ، كما يحتاج إلى اتخاذ الفراش و إنقال الغطاء ، والتماس وسائل الدفء خلاصاً من حدة البرد وتفادياً من أذى الضر .

ثم إن البرد كما تعلم ، يفتح اللهاة و يهيج الشهوة إلى الطعام ، ويسرع بالهضم ، وتدعو الطبيعة فيه إلى موالاة الأكل تحريكا للدم ، وبعثاً للحرارة فى الجسم ، وكيف للمعسر ، إذا واتى نفسه بكل هذا بمواتاة الولد ، وسد جوعهم ونهمهم ، ومطاوعة شرهم وقرمهم ، إلى مايقتضى من النفقة فى الثوب والرداء ، والفرش والغطاء ،والقدة والاصطلاء ؟

أما الصيف وحبذا وقده الحر فى الصيف ، فهى كما تعلم أيضاً ، مما يسد اللهاة ، ويقبض شهوة الطعام ، ويفتر الجسم ، ويخذل المعدة ، ويأبى عليها الحركة إلا بقدر يسير . فهى فى هضم الطعام محتاجة إلى الزمن الطويل ، فاذا زاد الطعام فى المقدار أو أكثر فيه الدسم أثقلها وأبهظها ، وأغناها بالوجبة الواحدة فى اليوم الأطول .

وأما الرداء فخيره أخفه وأشفه . وأما المنام فعلى جلدة السطح أو بين يدى الباب ، و إلا فقى عذارى الطرق متسع للجميع .

أصدقت الآن أن الصيف أحب إلى الفقراء أيضاً ، وآثر عندهم

لرفقه فى أبواب المعيشة بهم ، وتخفيفه فى وجوه النفقات عنهم . ولا تظن أن وقدة الحر ترهقهم كما ترهقك ، وأن شدة القيظ تبلغ منهم بعض ما تبلغ منك . فانه لا يصنع بك هذا إلا تعود الترف و إرسال النفس فى فنون النعيم . وحسبك أن تتفضل بزيارة شارعنا فى منتصف الساعة الثالثة بعد ظهر يوم حلقت حرارته إلى السادسة والأربعين ، لترى هذا الذى يحمل على رأسه هرماً من البرتقال أو الموز أو التفاح . وهذا الذى يدفع بين يديه قطاراً من « الشمام » أو « العجور » أو « الخيار » . وذاك الذى يقود برذوناً يجر عربة بترول ، وهو لا يفتأ يلهبه بالسوط ليتحرك ، لأن هذا البغل إنما يضيق بالحر ويتخاذل به بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن صاحبه . حبذا لو جزت بشارعنا فى تلك الساعة وسمعت من حناجرهم ذلك الصريخ ، لتشفق على النوام من سكان الأرض والايقاظ من سكان المريخ ، ولجزمت من آن واحد من هؤلاء لو كان يستشعر قيظاً أو يحس حراً ، ما استطاع دفعاً ولا استطاع جراً ، ولكان جهده نفثاً ، وصياحه لهثاً ! آمنت بالله المعين !

مصايف

على أن الله الذى قدر الأرزاق على بعض عباده قد سد لهم أسباباً من المتاع والسلوى والتفرج من كد الأيام . وإن للمعسرين من أهل القاهرة وغيرها من كبريات المدن لمصايف جميلة لا يكلفهم غشيانها من النفقة جليلا ، بل إن شاءوا لا يجشمهم فتيلا . وحسبك

أن تسلك فى ساعة الغروب من أيام الصيف هذه « الكبارى » التى تصل بين شقى القاهرة ، لترى أفاريزها تموج موجاً بالواقفين المطلعين على النيل ، المتنسمين نسيمه العليل . وأكثرهم من الشباب وأكثرهم هؤلاء تجدهم chacun avec sa chacune! ومن سنين يسيرة كنت ترى جميع هذه « الشاكينات » ملففات فى الملاء . أما الآن ، فترى كل ملاءة قد إنحسرت عن فستان أو شبه فستان !

وقلت لك إن هذه المصايف لا تجشم الرواد شيئاً ، فالرجل هى المركب فى الغدو والرواح . والمرتع ظهر « الكوبرى » فاذا أتحفت « الشكينة » من الحلوى بما يساوى « تعريفة » ، فحبذا الهدية الثمينة والتحفة الطريفة !

وأخيراً فانى لا أحب أن أنصرف عن هذه الخواطر العجلى دون أن أثبت ملاحظة ، أو على الأصح ، دون أن أدل على ظاهرة طبيعية اختص الصيف بها مصر دون سائر بلاد الله .

هذه الظاهرة العجيبة أن هنالك اتفاقاً وثيقاً لا شك أنه أوثق من اتفاق دولتى المحور ، بل إنه لأشد وثاقة من الاتفاق بين إنجلترا وفرنسا القائم فى هذه الأيام . وهذا الاتفاق الوثيق المتين معقود بين الطبيعة و «وابورات» الثلج فى مصر . ومقتضاه أنه بمجرد ارتفاع درجة الحرارة إلى الحد المرهق تنكسر « وابورات » الثلج من تلقاء نفسها كسراً لا يجبره إلا اعتدال الجو وابتراد الهواء . و برغم أصحاب تلك « الوابورات » و برغم الثلاجين المساكين يرتفع ثمن « اللوح »

إلى العشرين والثلاثين والأربعين ، ولا حـول ولا قـوة إلا بالله العلى العظيم .

أصدقت الآن أن هذا الاتفاق أوثق خمسين مرة من الاتفاق بين من ذكرنا من الدول !

وحاشا أن يبلغ اتفاق الساسة مهما كانوا من الأبرار ، إتفاقاً تعقده الطبيعة وتبرمه الأقدار !

فى التليفون

لقد أدركنا من صدر نشأتنا جمعيات كانت هنا وهناك من أحياء القاهرة وغيرها من المدن الكبرى . وهذه الجمعيات كان يغشاها كل من يشاء ، إذ تلتقى فيها الخطب ، وتعقد المناظرات ، يتولى أطرافها فى الغالب ، متقدمو الطلاب ، وحديثو العهد بالتخرج من المعاهد والمدارس .

ولعل أهم الأغراض من قيام تلك الجمعيات ، إذا لم أقل غرضها الفذ ، إنما كان التمرين فى الخطابة ، وتعويد الألسن الانطلاق فى المجامع والمحافل . فكنت تسمع المحاضرة فى منافع الهواء ، وفى مزايا الشمس ، وفى فضل الماء على الخليقة مثلا . كما تسمع المناظرة فى المفاضلة بين السمك واللبن ، ولا تنسى « فيض المنن ، فى تفضيل السمك على اللبن » ، والموازنة بين القطار والتلغراف « السلك والوابور » .

وأرجو أن تصدقنى إذا زعمت لك أنه كانت تعقد المناظرات أيضاً فى المفاضلة بين العلم والجهل ؛ على أنه كان يتقدم للكلام فى تفضيل الجهل على العلم من يظن أنه أنطق المتناظرين لساناً ، وأطلقهما بياناً ، وأسطاهما قولا ، وأحضرهما حجة . حتى إذا ما ظهر على خصمه ،

وأدحض على فضل العلم دليله ، كان ذلك دليلا على فضله هـو وسبقه فى حلبة البيان ! وما ضر مادام الغرض التمرين فى الخطابة ، وشحذ ملكة الجدل ، والتماس وجوه الأدلة على صحة الرأى واقعاً حيث وقع من الصواب والسداد ، أو من البطلان والفساد ؟

وبعد ، فلا ريب فى أنه أصبح سمجاً كل السمج بكاتب أن يقول اليوم فى منافع التليفون ، وما يوفر من الوقت فى الكثير من قضاء الحوائج ، وما يسرع بالأسعاف فى الكوارث ، ويعين على ضبط الأمن وكف العوادى ، ويؤذن بالأسعار ، لوقتها ، فى التجارات الهامة فلا يغبن بائع ولا شار ، وييسر المشافهة بين الأقرباء ، والأصدقاء ، والأحباء ، على بعد المسافة ، وطول المدى ، الخ . الخ . الخ .

إذا كان سمجاً بكاتب أن يعرض لمثل هذا فى الزمن الذى نعيش فيه ، فما أحسب أنه سمج بأحد أن يشكو التليفون ، وما يبلغ من أعصاب الناس هذا التليفون !

ولعل قائلا يقول : ما بال فلان يعبر عن هذه الأداة بكلمة « تليفون » ، ولا يعبر عنها « بالارزيز » التى اختارها المجمع اللغوى ؛ وهو أول الناس باتباع ما يقر المجمع من تسميات ؟

وفى الحق ، لقد كانت هذه الكلمة شؤماً على المجمع ، وكانت مفتاحاً لكل ما أسطر من تندر وتقليس لا أشك فى أنهما كادا يعوقان سعيه ، إذا لم يكونا قد عاقا منه بقدر عظيم أو يسير ؛ إذ المجمع برئ ، برئ ، برئ ؛ فلا هو أطلق على التليفون إرزيز ، ولا هو نظر قط فى لفظة « إرزيز » ، ولا عرض ، ولا عرض ، إلى هذه الساعة ،

لتسمية التليفون وكيف يدعوه . وكل مافى الأمر أن للمجمع مجلة يصدرها طوعاً لحكم المرسوم الصادر بانشائه . وهذه المجلة مقسومة إلى قسمين : قسم رسمي ، وينشر فيه مايصدره المجمع من قرارات ، وما ينتهى إليه رأيه فى التسميات والتعبير عن المصطلحات . وقسم غير رسمي يكتب الكاتبون فيه من أعضاء المجمع وغيرهم مابدا لهم من بحوث لغوية ، ويقترحون فيه مايشاءون من تسميات ومصطلحات ولا يعد المجمع مسئولا ، ولا يمكن أن يعد مسئولا عن شئ من هذا ، ولا يقال إنه صادر عنه بحال . وكلمة « الارزيز » ، خيبة الله عليها ، هى من هذه المقترحات فى القسم غير الرسمي ، لا أكثر ولا أقل ، أما « شاطر ومشطور وبينهما طازج » وأخواتها ، فهى من بدع النكتة ، ومن خلق المفلسين !

نعود ، بعد هذا ، إلى التليفون ورزاياه ، بعد أن آمن كل الناس بمنافعه ومزاياه :

التليفون : عصمك الله من كل مكروه ، كما تعرف ، أداة سريعة للتخاطب ، سواء فى قضاء الحوائج ، أو فى دفع الكوارث ، أو فى الاستنجاد فى الأحداث ، أو نحو ذلك ؛ على أن الكثيرين منا نحن المصريين ، والسيدات على وجه خاص ، لا يفرضون له ذلك ألبتة ، بل إن بعضهم وبعضهن لينظمونه فى جملة الآلات الموسيقية ، كالعود والقانون والبيان ، كما دعاه المجمع اللغوى ، والكمان مثلا . فاذا أنعم الله على سيد أو سيدة من هؤلاء بالتليفون فى دار صديق أو غير

صديق ، جعل يتحدث ويتحدث ، ما بكل ولا يمل ، ولا يتعب ولا ينصب ولا تقفه شهقة ، ولا يختلج له فك ، ولا ينقطع له نفس ، بل لعله فى لذته واستمتاعه أمرح من مستمع إلى عود صناع ، أو قانون ضارب حسان !

ومما حدثنى به الثقة الصادق أن سيدة من صديقات أسرته ، تختلف إليها للزيارة فى أكثر الأيام ؛ وما بلغت الدار قط إلا عدلت من فورها إلى التليفون ، فتكلمت ثم تكلمت . حتى إذا أذن الله للكلام بختام ، رفعت السماعة ثانياً ، وافتتحت مع آخرين حديثاً آخر ، وهكذا حتى إذا تمت لها ثمانية أحاديث أو عشرة ، قامت فجلست إلى صواحبات الدار ، وما إن تفرغ من شرب القهوة بعد السلام وبث الأشواق ، وما إلى ذلك ، حتى تهرع إلى التليفون أيضاً ، فتعيد مابدأت ، وتستأنف من الأحاديث ماقطعت ، وهكذا ! . . .

قال صاحبى : ولقد أقبلت هذه السيدة ذات يوم ، وأنا جالس فى غرفة قريبة من آلة التليفون ، بحيث أسمع برغمى الحديث فى يسر ، فأنا أشد الناس كراهة للتسمع على الناس ، ورحت أعد « النمر » التى تطلبها ، فاذا هى ست عشرة ، قد استهلكت جملة الأحاديث فيها مايقرب من الساعتين . وأنى أستطيع مطمئناً على دينى وضميرى أن أحلف لك ، بكل ما يحلف به البار والفاجر ؛ على أنه ما سقطت إلى أذنى من كل ذلك كلمة واحدة تدعو إليها ضرورة ، أو تبعثها حاجة ، أو تنفع فى أى شئ ، أو تضر فى أى شئ ، أو يترتب عليها فى يوم من الأيام أى شئ !

وحدثنى صديق من الظرفاء قال : كنت جالساً فى مقهى (كذا)، وكان ذلك فى شهر يوليه ، وكان اليوم شديد الحر ، وبدا لى أن أتحدث فى التليفون إلى صديق فى شأن عاجل ، فاذا مقصورة التليفون مشغولة برجل يتحدث جاهداً ، و يهز رأسه هزاً عنيفاً ، كأنما يوقع به على نبر الكلام ، أو يمسك « الواحدة » على تعبير أصحاب الموسيقى . وانتظرت طويلا عله ينتهى ، فلم ينته ، فعدت إلى مجلسى حتى مضى نصف ساعة أيضاً ، ثم نهضت فنقرت له على الزجاج أتعجله فالتفت إلى ، و إن كان فمه لم يلتفت ، وجمع أطراف أنامله ، وأشار إلى بالتمهل ، فأمهلته ، حتى سمعته يحيى صاحبه تحية الختام ، ثم لم يرعنى إلا أن يستأنف الحديث فيقول لصاحبه : « إلا قل لى » و يمتد الحديث شوطاً اخر ، فاذا أذن الله وسمعت منه « نهارك سعيد بقى » مثلا ، فتنفست الصعداء ، كما يقولون ، عاد فقال : « لكن ماقلتليش على كذا » ، وهكذا حتى كدت أخرج من جلدى ، ولم يغظنى أكثر من أن أسمعه يقول فى وداعه لمحادثه : « بكره إن شاء الله نتقابل فى محل كذا » ، فاقتحمت عليه المقصورة ، وقلت له : « يا أخى! لقد سرقك الكلام ، فلقد صرنا بعد بكرة ! »

ولا تظنن أن هذا الرجل وتلك السيدة من الشواذ فينا نحن المصريين ، وأرجو ألا يغيب عنك أن هذه الاطالة التليفونية قد تجر أحياناً إلى أخطار ، بل لقد تجر إلى أشد الأخطار . فلقد يطلبك قريب أو صديق ، أو أى إنسان بينك وبينه عمل ، ليحدثك فى أمر عاجل ، فلا يصل إليك ، حتى يفوت الوقت وتفلت الفرصة ، وتضيع المنفعة أو تقع المضرة !

ولقد يحدث لبعض أهل الدار حادث من جرح ينزف الدم ، أو يكسر العظم ، أو تسمم ، أو نحو ذلك ؛ فيلتمس طبيب الأسرة فى المقهى الذى اعتاد أن يقضى فيه بعض الليل ، فاذا التليفون يئز الساعات الطوال ، مايسكن فى أثنائها لحظة ولا ينقطع ، ذلك بأن « دُغْفاً » من زبائن القهوة يحدث صديقاً . . . فاذا شاء الله ، وبدا له أن ينتهى ، تلقفه منه آخر من طرازه وضربه . وهكذا . . .

هذه بعض رزايا التليفون من ناحية الاطالة فى الحديث فى غير جدوى ولا ضرورة أبداً .

وهناك رزايا أخرى ، نعرض نماذج يسيرة منها ، والله المستعان :

لقد يدق جرس التليفون فى الصباح الباكر ، وأهل الدار نيام ، فى السادسة إذا كان الوقت شتاء ، وفى الخامسة إذا كان صيفاً ؛ فيهبون مذعورين ، وقد جفت قلوبهم ، وزاغت أبصارهم ، وتداركت أنفاسهم لأن التليفون ، فى مثل هذه الساعة ، لا يمكن أن يفضى بخبر ، بل قل أن يفضى فيها إلا بالشر الكبير ، والعياذ بالله . ويتقدم أشجع أهل الدار ، ويتناول السماعة بيد مرعشة ، ويقف سائرهم وقفة منتظرى الحكم فى الجنايات الخطيرة . ثم إذا هم يسمعون : « لا ، النمرة غلط » ، فينصرف كل منهم إلى سريره ، أو إلى بعض شأنه ما يتكلمون ، فقد عقد الذعر ألسنتهم ، واشتف دماءهم ، فما يقوى أحد منهم على الكلام .

وكل ذلك لأن البارد السمج الذى يطلب التليفون ، فى هذا

الوقت ، لا يجشم نفسه التحرى عن الرقم المطلوب ؛ ثم إدارة الآلة طوعاً له ، فيكفى الآمنين كل هذا البلاء !

ولقد يدق جرس التليفون ، فتجيبه ، فيجرى الحديث هكذا :

— أنت س عطوة ؟

— لا !

— أمال أنت مين ؟

— أما مش س عطوة وبس !

— طيب ما تقول أنت مين ؟

— يا أخى ! أنا لست س عطوة الذى تطلبه وكفى !

— ده مش محل فلان ؟ (ويعين متجراً أو مصنعاً .)

— لا يا سيدى ، هذا منزل !

— منزل مين ؟

— منزل لا شأن لك به يا سيدى !

— أما شئ بارد ! أما ابن . . . صحيح ! ويسرع إلى قطع طريق الحديث . والحمد لله !

ولقد يطلبك الطالب ، فيسألك : أأنت فلان ؟ فاذا سألته اسمه ، أبى أن يجيبك ، أو تبدأ أنت أولا بالجواب عما سأل ، وتراجعه فى هذا فيلح ويأبى ، إذ العرف واللياقة يقضيان بأن يفضى باسمه هو أولا ، ليدع لك الخيار فى حديثه أو الانصراف عنه .

ومما يتصل بهذا المعنى أن يطلبك طالب ، فاذا سأله الخادم عن اسمه ، كان جوابه :

— بس قل له واحد عايزك . ولا يأذن باسمه أبداً !

ومما يتظرف به الكثير أن يطلبك بعضهم ، وقد تكون مشغولا جداً ، فاذا استوثق من شخصك ، بدأك بالتحية ، فتحييه بأحسن منها أو مثلها ، ثم كررها على ألوان وصور شتى ، ولا يسعك إلا أن ترد عليه التحية بالتحية ، ثم ما يروعك إلا أن يفاجئك بهذا السؤال :

— طيب أنا مين ؟

— يا سيدى ، قل لى حضرتك مين !

— بقى مش عارف أنا مين ؟

— بماذا نأمر يا سيدى ؟

— لازم تقولى أولا أنا مين !

— لعل خللا فى أسلاك التلفون يغير من صوتك ، فاعمل معروف وقل لى من أنت ؟

— طيب افتكر كده !

ولا يزال يلون لك هذا العذاب ، أو تخبره من هو ، أو بعبارة أخرى لتلقنه اسمه ، وتقدم إليه شخصه ، وتعرفه نفسه !

وكيفما كان الحال ، فقد أضاع وقتك ، وأثار أعصابك ، وأفسد تفكيرك ، وأحبط سعيك ، وحال بينك وبين معاودة عملك ، وهكذا يكون التظرف ، وكذلك يكون الظرفاء !

أما حوادث الخدم ، إذا كنت غائباً عن الدار ، أو كان متعذراً

عليك الوصول إلى التليفون لوقتك — أما حوادثهم فى تسجيل أسماء المتكلمين فى ذاكراتهم ، وفى تسجيل رسائلهم ، وفى التبرع بالأجوبة عنك ، فأيسرها ما يكدر بين الأخوين ، ويفسد ما بين الصديقين ، ويحبط ما عسى أن يكون لك من سعي ، ويبطل ما عملت من عمل ، لعلك نطت به أعظم الأمل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

وبعد ، فاذا كان لى أن أسأل الله لمجموعنا شيئاً ، فانى أسأله أن يعلمنا كيف نمشى فى الطرق الحافلة بأسباب الدوس والصدام ، وأن نلتزم فى التليفون القصد والدقة وأدب الكلام .

وما ذلك على الله بعزيز !

كيف نمشى فى الطرق

من الملاحظات ، أو التشهيرات التى كان يتحفنا بها اللورد كروسر فى تقاريره السنوية ، أن أكثر الركبان فى المدن (يعنى ركاب الدواب من الجمال والحمير) إنما يسيرون على الطوار (الرصيف)

أما الرجال (الذين يمشون على أقدامهم) فلا يحلو لأكثرهم السعى إلا فى وسط الطريق !

ولو قد بسط فى عمر اللورد إلى هذه السنين ، لرآنا قد برئنا ، والحمد لله ، من نصف هذه العاهة ، وليس بمستنكر على الله أن يبرئنا من النصف الآخر فى بضع سنين !

وإذا كنت أعرض للأخطار التى يستهدف لها السابلة ، فى القاهرة على وجه خاص ؛ فليس معنى هذا أننى أعض الساقة ، على اختلاف آلاتهم ، من المسئوليات ، فهذا سائق سيارة يطير طيراً ، لا يبالى أحداً ولا يبالى شيئاً ؛ كأن الله تعالى قد بسط هذه الأرض كلها وحده ، وصقل له وجهها مستقلا ، فلا تعترضه حفرة ولا نتوء ، ولا يعوقه شجر ولا حجر . وما تقوله فى ساقة السيارات تقول أشنع منه فى قادة « الموتوسيكلات » . وأما الغلمان الذين يجلون بالدراجات فأولئك ندع حديثهم إلى القول فى سالكى الطرق على وجه عام .

أما الترام ، وما أدراك ما الترام ؛ فكثيراً ما يرى «الكمسارى» بعينيه الرجل ، وقد يكون شيخاً كبيراً ، وقد يكون رجلا مريضاً ، وقد تكون امرأة حاملا ، وقد يراها تحمل طفلا ، وتأخذ بيد آخر ؛ قد يرى بعينيه أحداً من هؤلاء يهم بالصعود إلى المركبة ، إذ رجله الثانية لما تزل ثابتة على الأرض ، فيسرع إلى النفخ فى صفارته ، وسرعان ما يتحرك القطار ، وأنف أرواح الناس ، وسلامة جوارحهم من البتر والتهشم ، راغم !

ودعنا من سائق السيارة يضرب بجهد سرعته فى زحمة الناس ، إذ هو مقبل بالحديث على من بجانبه أو مولٍّ ظهره وجه الطريق ، مستغرقاً فى الحديث مع من فى داخل العربة .

هذا كله معروف مشاهد ، لا نرى محلا للاطالة فيه ، وإقامة الأدلة عليه ، وما لهذا سقنا الحديث ، إنما سقناه لهذه الكثرة الكثيرة التى لا يحلو لها السعى إلا فى وسط الطريق ، برغم احتشاده بالمهلكات المتلفات .

ولقد يلتمس ملتمس لهؤلاء عذراً بأن الطوارات (الأرصفة) فى القاهرة أكثر حفراً من وسط الطريق ، فهى أدنى إلى عثرة القدم ؛ ولعل آخر يلتمس العذر فى أن طواراتنا دائماً أشد وساخة وأكثر فاذورات من عرض الطريق ؛ وهذا ، مع الأسف العظيم ، مالا أحسبه يقع فى بلد آخر ! وكيفما كان الأمر ، فان هذا وهذا لا يصلح عذراً للتعرض ، على هذه الصورة ، لكل ذلك البلاء المحيق !

وإذا تملنا هذه الكوارث التى تقع كل يوم فى شوارع القاهرة

وجوادها ؛ فإن من الظلم الواضح أن نضيفها كلها إلى جنون السائقين ، أو إلى عجلتهم ، أو إلى قلة كفايتهم ؛ بل إن من الانصاف أن نفرض قسطاً كبيراً من أسبابها إلى أولئك الساعين على الأقدام ، و إلى أولئك الذين يحجلون بالدراجات فى مزدحم الطريق .

وبعد ، فلعل بعض قراء « الثقافة » ما برحوا يذكرون أننى ختمت مقالى السابق « فى التليفون » ، بالابتهال إلى الله تعالى أن يعلمنا كيف نمشى فى هذه الطرق الحافلة بأسباب الدوس والصدام ، كما يعلمنا فى التليفون القصد والدقة وأدب الكلام . والآن أعرض نماذج مما يجرى فى طرقاتنا وبعضها مما « يشيب الطفل من قبل المشيب » .

ولقد عرفتَ ، بل لقد رأيت ، إن كنت من سكان القاهرة أو ممن يغشونها كيف يهجر الساعون مع أقدامهم الطوارات ، ويتدفقون فى عرض الطريق تدفقاً ، ما يبالى أكثرهم ما عسى أن يعتريه من قدامه أو من وراء ظهره ، أو من يساره ، أو من يمينه من تلك الفواتك بالأعمار ، والمفرقات للأعضاء ، والمحيلات للأجسام الصحيحة فى لحظة إلى أشلاء بجانب أشلاء !

ولقد ترى الماشى بين شريطى الترام ، وهو يسمع دوبه من وراء ظهره ، إذ السائق جاهد فى دق الجرس وموالاه هذا الدق ، وصاحبنا لا يعدل ولا يتحول ، كأنه استحال هو أيضاً تراماً لا يستطيع السير إلا على الشريط ؛ وفى اللحظة الأخيرة ، اللحظة التى يعقبها البلاء الفاتك ، يسمح حضرته بالتحنس فى تثاقل عظيم ، ثم تراه يعود إلى سبيله ، وهكذا ! . . .

وكثيراً ما ترى ناساً يمشون فى يمنى الطريق وتقبل السيارة فى جريها ، من ورائهم ، والسائق ينبههم جاهداً إلى إخلاء السبيل بالاعتصام بالطوار ، أو على الأقل ، بالمشى بجانبه ، ينبههم جاهداً بالبوق مرة ، و« بالكلاكس » مرة ، فلا يسمعون ولا يحفلون ، إذ السائق المسكين أحياناً ، بين ثلاث : إما أن يسرع إلى وقف السيارة فجاءة ، وقد تنقلب فى هذه الحالة ، وخاصة ، إذا كانت مسرعة ، وفى ذلك هلاكه وهلاك من معه من الراكبين ، وإما أن يعدل هو عن الطريق مفاداة لهذه العمد الساعية على الأرض . وقد يصطدم بجدار أو حامل مصباح ، أو يدوس من لا جناية له من السائقين ؛ وإما أن يتوكل على الله ويدوس فى طريقه من يدوس من هذه العمد . ولعل هذا أرفق الحلول ، إذا لم يكن من إحدى تلك الحالات الثلاث محيص !

ولقد أذكر أننى كنت ذات صباح شاخصاً إلى الجيزة ، فاذا الترام مزدحم جداً ، وأكثر زاحميه من الطلاب الذاهبين إلى مدارسهم ومعاهدهم هناك ، فلم أصب لى مكاناً إلا وقفة بجانب السواق . ولم يرعنى ، ونحن فى بعض الطريق ، إلا أن أرى رجلا مقبلا على الترام من قدامه ، وقد تحرى المشى بين الشريطين ، والسائق يجهد فى دق الجرس له ، وهو لا يعدل ولا يتحرّف ولا ينثنى ، حتى إذا اقترب منه الترام ، أو على الأدق ، حتى إذا اقترب هو من الترام ، اقشعر جسدى ، وقف شعر رأسى ، فأسرعت إلى المفتاح ، ورجعته فى عنف ليقف القطار ، فالتفت الى السائق وقال لى ، فى شئ

من الغضب : ما الذى دعاك إلى هذا ؟ قلت له : ألم تر كيف أن الرجل كان عازماً على أن يدوس القطار فى غير إشفاق ! فاشكر لى أن نجيتك كما نجيت نفسى وسائر الركب من هذا الخطر العظيم !

أما الذين يحاولون قطع الشارع من العبر للعبر ، فأولئك شأنهم أعجب وأغرب ، وصنيعهم ألذ وأطيب . ومن الظواهر التى تسترعى النظر حقاً فى هذا الباب أنك تجد هؤلاء دائماً مستعجلين جداً ، وشجعاناً مقاديم ، لا يهابون أشنع الموتات فى سبيل . . . لا شئ مطلقاً من الأشياء ! . . .

يريد أن بعبر الشارع ، فسرعان ما يعبره ، ما يجشم نفسه الالتفات ذات اليمين ولا ذات الشمال ؛ ولعل أكثرهم يفحص عينه من وقت العبور ، لكيلا يرى الفواتك الجارية من هنا ومن هنا ، وهذا ممكن ، ولعله فى بعض الأحيان حسن . على أن هنالك أمراً غريباً ، لا بد أن يكشف العلم عن سره فى يوم من الأيام . ذلك بأن الانسان يستطيع أن يفحص عينيه لكيلا يرى ، فهل ترى لآذان هؤلاء الناس جفون أيضاً ، يستطيعون أن يطبقوها لكى يستريحوا من استماع دوى الترام وجرسه ، وزمر الأتومبيل وكلاكسه ؟

وإنك يا سيدى القارئ لترى فى كل شارع ، فى كل يوم ، وفى كل ساعة ، وفى كل دقيقه ، من لا يرضون أن يطمئنوا فى مواقفهم حتى يجوز الترام ، أو تجوز السيارة ، مهما تكن سرعتها وقربها منهم ؛

بل لا بد من القفز أمامها وقطع الشارع فوراً . ولماذا ينتظر المرء دقيقة أو بضع ثوان ، والوقت كما تعرف من ذهب ؟

ولقد كنت في يوم من أيام الأسبوع الماضي أمشي في شارع قصر ابن العيني ، على الطوار طبعاً ، و إذا الترام القادم من ميدان الاسماعيلية يجري بآخر جهده ، و إذا شيخ مرسل اللحية ، محفوض الشارب ، يضع على قبائه (قفطانه) معطفاً ، وعلى رأسه طربوشاً ، وفي يمينه عكازة ، وفي يساره مسبحة تتلقط أنامله حباتها دراكا . وأنت خبير بما تفعل مع ذلك شفتاه ، أما ما يشغل القلب فلا يعلمه إلا الله ! — أقول و إذا هذا الشيخ يقفز من بين يدي الترام قفزة عنيفة نجا بها ، والحمد لله ، و إذا كان ظله القصير لم ينج من وطء العجلات الأولى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !

ولقد لحقت به ، وقلت له :

— يا عم ! قد يجوز أن يكون حسابك دقيقاً مضبوطاً في قياس سرعة الترام ، ومقدار المسافة التي عليك أن تقطعها بين يديه ، ومدى جهدك في القفز ، والمدة التي تحتاج إليها في ذلك . لقد يكون حسابك في كل أولئك دقيقاً مضبوطاً ، ولكنك لم تدخل في هذا الحساب عثرة الرجل مثلا ، أو اعتراض سيارة مفاجئة من شطر الطريق الذي تطلبه ؛ فكيف كانت تكون الحال ؟ فأقبل علي وقال :

— أي والله يا ابني ! صدقت . ولكن . . . ربنا يستر ! . . . آمنت بالله ! . . .

وأرجو ألا ننسى أن هذه الكلمة « ربنا يستر » ، هي في هذه

البلاد نعار كل ملق بنفسه إلى التهلكة ، أو بغيره إلى الهلاك .

ومن بضع عشرة سنة ، كنت أركب الترام ، وكان مجلسى خلف السائق مباشرة ؛ وبينا كان يجرى بأقصى سرعته فى شارع كلوت بك ، إذا فتى يجوز من أمامه ، ولولا أن السائق أسرع فضبط العجلات « بالفرامل » ضبطاً عنيفاً رج الركب رجاً عنفاً ، وأزعجهم إزعاجاً شديداً ، لصار هذا الفتى (المستعجل) للحظته أنقاضاً على أنقاض .

إذاً لقد وقف القطار ، ومر الفتى لم يَكلم أى عضو من أعضائه كلما ؛ بل لقد امتاز على هؤلاء الراكبين بالدعة ، فما وجف له قلب ، ولا نبض فيه عرق ، ولا امتقع لونه ، ولا جف ريقه . ولقد بدا لى أن أنزل فأتبعه لأرى ما الذى أعجله من جلى الأحداث العالمية ، حتى خاطر بحياته بهذا القدر المرعب المهول .

وأتبعه حتى بلغ الطوار الثانى ، فاذا هو فتى متشرد من هؤلاء الفتيان المتشردين ، خلق الثوب ، حافى القدم ، وسخ الوجه والقفا ، ثم وقف بحذاء دكان تبيع الشمال[1] ، وجعل يحك قفاه بيده ، ثم قبض على دابة ، فصعها بين ظفرى إبهامه . ثم انكفأ يريد الطوار الثانى ، فقلت فى نفسى : لا بد أن يكون قد صدر قانون بتوقيع أشد العقاب على من يقصع الـ . . . على غير هذا الطوار !

---

(١) الشمال : جمع شملة . بفتح الشين : ما يتلفع به ويقال لها فى العامية « التلفيحة » .

بقى الحديث فى راكبى الدراجات ، وأكثرهم ، كما ترى ، من الغلمان الحفاة . وهو ، ولا ريب ، حديث يطول . ولا يعود يحتمله هذا المقال ، بعد كل الذى مضى من الكلام . ومبلغ القول فيهم أن الغلام الحافى من هؤلاء ما يكاد يحصل على « قرش تعريفه » يهيئ له استئجار دراجة ساعة أو بعض الساعة ، حتى يفرض أن شوارع القاهرة وجوادها وميادينها ، وحواريها ، وأزقتها ، ومسالكها ودروبها ، قد أخليت له إخلاء كاملا ، ونفض من فيها من الناس والدواب وسائر وسائل المواصلات نفضاً . فاذا لم يكن هذا متيسراً ، فلا أقل من أن يقف كل سائر ، ويتربص فى مكانه كل عابر ، ويجمد كل متحرك ، حتى يجوز هو بسلام ، ما تكلف أن يدق جرساً ، أو يرفع بالتنبيه والانذار صوتاً !

ولقد ترى الحافى من هؤلاء راكبى الدراجات ، وقد اعترضته فى سبيله سيارة من نوع « البويك » أو « الأستوديبكير » ، أو «الدملر» بل « الرولز رويس » ، وهى تجرى فى سرعة عظيمة ، إلا بسط إحدى ذراعيه إلى سائقها يشير إليه بالوقوف أو بالتمهل ، على الأقل حتى يجوز هو ، فله حق التقدم على كل حال بها ، وسنده رجله الحافية بلا نزاع ولا جدال !

وكثيراً ما يفسد هؤلاء الغلمان الأمر على السائقين ، ويوقعونهم فى الحيرة والارتباك ، لقد يقضيان أحياناً إلى الأخطار الجسام .

وبعد ، فانى أعود فأرغب إلى الله تعالى أن يخلصنا من هذه الآفاق ، ويعلمنا ، بفضله ، كيف نحسن السعى فى الطرقات . آمين .

الانتقام اللذيذ

لقد تعرف أن من أسماء الله الحسنى « المنتقم » ؛ ولكن إياك أن تظن أن انتقام الله تعالى كانتقام الخلق : أخذ بالثأر ، وإرضاء للحقد ، وشفاء لغلة الصدر ؛ فلقد تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . بل إن المراد من الانتقام بالاضافة إليه ، جل مجده ، هو لازمه من التأديب ، وبسط العقاب المستحق ، وإطلاق العبرة البالغة .

والانتقام قد يكون من الأناسيّ ، وقد يكون من الحيوان ، وقد يكون مما لا يعقل ولا يحس من سائر الأشياء ؛ وأرجو ألا نعجل بالعجب ، فستعلم نبأ هذا بعد حين !

وأحب ، يا سيدى القارئ ، أن أؤكد لك أننى بحمد الله تعالى ، ما انطويت قط على حقد ، ولا بت قط على ضغن ، ولا سرنى قط مساءة إنسان ولا حيوان ؛ فلقد وقى الله بفضله ، صدرى من هذا الداء ، ونجانى ، برحمته ، من ذلك العناء .

على أننى ، ولا أكتمك ، أجد فى بعض الانتقام ، وأعنى انتقام الله تعالى ، لذة وطرباً ؛ نعم ، لقد أحس لبعض ألوان الانتقام لذة لا أكاد أحسها للفرج بعد الضيق ، وللين بعد الشدة ؛ بل لا أكاد أحسها وقد جلست فى ساعة اطمئنان النفس وهدوء البال ،

للاستماع إلى غناء حلو يلقى ببارع النبر على عود حسان صناع .

إذاً فمن الانتقام ما يلذ ويطرب ، كما أن من الانتقام ما يروع ويهول !

ولقد تقدمت إرادة الله ، فى هذه الأهوال العالمية المهولة ، بانتقامين بديعين لذيذين ، لا أخفيك أن نفسى قد أصابت منهما قسطاً كبيراً من الراحة والمتاع .

أما أول هذين الانتقامين البديعين فمن بعض الناس ، وأما ثانيهما فمن بعض الأشياء . وإليك البيان .

١ — لقد جرت عادة الكثيرين من الموسرين وأنصاف الموسرين من سكان القاهرة وغير القاهرة أن يقضوا أشهر الصيف فى رمل الاسكندرية ، كما جرت عادة أصحاب الدور فى هذا الرمل ، ومن فى حكمهم من مستأجرى دورهم للمدد الطويلة ، أن يشتطوا فى الأجور ، ويبالغوا فيها مبالغة لم يكن يعبأ بها المصيفون بجانب استراحتهم إلى المصيف ، واستمتاعهم وأولادهم بماء البحر وتنسم الهواء العليل ، بعد ما عانوا فى عامهم ، كبيرهم من كد السعى والعمل ، وصغيرهم من كد الدرس والاستذكار ؛ فلا بأس مع هذا بأن ينفق المرء فى كراء البيت ضعفى ما يستحقه ، ولا بأس بأن يشترى الخبز ، واللحم ، والسمك واللبن ، والفاكهة ، والجبن ، والبصل الخ ، بأكثر مما يعلم أنه جاره الاسكندرى يشترى به بحجة أنه غريب « مصيف » ينبغى أن يستغله التجار والباعة بعض الاستغلال !

بل لا بأس على ساكن القاهرة مثلا إذا قال للفاكهانى الاسكندرى

بكم الوقة من هذا التفاح ؛ وأرجوك أن نقرأها بكسر الواو ، وبابدال القاف بالهمزه (على نطق أهل القاهرة) لا بأس على ساكن القاهرة إذا وجه إلى الفاكهانى فى هذا السؤال ، فكان جوابه : « بعشرة جروش » . ثم يهبط اسكندرى فيسأله : « بكم الوجة » ؟ فيكون الجواب : « باربعتاشر جرش « يعنى تعريفه » ، يعنى سبعة قروش صاغ لا أكثر !

لا بأس بهذا كله ، فهو استغلال رقيق محتمل على كل حال !

أما الذى به كل الناس ، والذى استحق من الله كل هذا الانتقام البديع اللذيذ ، فهو أن ملاك الدور فى الرمل ما كادوا يطمئنون إلى أن أحداً من المصريين لا يستطيع قضاء الصيف هذا العام فى أوربا ، حتى أعلنوا نأرجهم فى الأجر واستطاطهم فى الكراء إلى الحد المرهق المضنى ، فمن لم يطلب فى كراء داره أربعة أضعاف ما كان يقتضيه فى الأعوام السابقة ، اقتضى ثلاثة أضعاف ، أما أشدهم قناعة وزهداً فمن يرضى بالضعفين والنصف !

سكان القاهرة وغيرهم مضطرون ، هذا العام ، إلى اتخاذ المصايف المصرية ، لأنهم لا يستطيعون تخطيها إلى البلاد الأجنبية ، ويالها من فرصة عظيمة تؤتى الغنى ، وتجلب الوفر العاجل ! أليس لنا البحر وشواطئة البديعة ؟ أليس الله قد ورثنا نسيمه العليل ؟ فما لنا نبذله ، فى غير شئ ، لهؤلاء الفارين من حر القاهره وغبر القاهرة ، وطالبى الاستجام فى هذا الجو المريح بعد العناء والكد فى العام الأطول ؟ ما لنا لا نقتضيهم عن روحة الموجة ، وهبة النسمة ،

ولو عصرناهم عصراً ، وبعناهم النظرة إلى الأفق شبراً فشبراً ؟

هكذا شاءوا ، وعلى هذا جمعوا النيات والعزائم . وهكذا نسوا دورة الفلك الدوار . ونسوا أنهم يقدرون فتضحك الأقدار !

ولقد علمت أن المصريين جميعاً وأعنى مياسيرهم ومتوسطى الحال منهم ، قد أمسكوا عن الشخوص إلى الاسكندرية هذا العام ، نزولا على أمر الحالة الحاضرة ، ودور الرسل المهيأة للتأجير خزيانة تنظر ! بل لقد علمت بعد هذا أن كثرة مالكيها ممن تضطرهم هذه الحالة الحاضرة إلى الهجرة إلى الريف ، حيث يؤدون هم أجور السكن كارهين مرغمين !

أرأيت عدلا أحلى من هذا العدل ، وانتقاماً ألذ من هذا الانتقام ؟

٢ — هذا ما كان من أمر الانتقام من بعض الناس . أما ما كان من الانتقام من بعض الأشياء فاليك الحديث : أنت ، ولا ريب ، تعلم أن القاهرة هى أجمل المدن المصرية ، بل هى أجمل مدن العالم كافة ، ولعلى لم أحسن التعبير من الواقع تماماً ، فأى جو غير جو القاهرة خانق بفر منه ، وينبغى لبس القناعات الواقية فيه على الأقل ؟

وإذا كنت فى شك من هذا الكلام ، فارجع إلى شأن تسعة وتسعين فى المائة ، أو تسعمائة وتسعين فى الألف من موظفى الحكومة فى الأقاليم تجدهم يصلون الليل بالنهار جادين جاهدين ، فى التماس النقل إلى القاهرة . فمن لم يسع له أبوه عند كبار الحكام سعت له

أمه عند نسائها ؛ وهذا أم فلان تبكى حتى تستعبر بين يدى زوج الحاكم أو بنته أو أخته ، فيرد عليها غربة ولدها المسكين الذى لا طاقة له بالغربة ، فلم يألفها فى حياته ولم يعرفها .

ولا تجد أحداً منا ، نحن الموظفين ، يعدم الحجة على طلب النقل إلى القاهرة ، فمن ليس له أولاد فى المدارس ، فان له ، بحمد الله ، أباً فى « الاسبتالية » . ومن ليس له أم ضربها الفالج فان له أخوة تربى على العشرة . . . وهكذا ! . . .

وأما النقل من القاهرة فمصيبة دونها عندنا ، نحن الموظفين ، جدع الأنف ، وفقء العين ، وصلم الأذن ، وقطع اليد اليمنى التى نأكل بها ونشرب ونكتب ، ونتناول بها أهم الأسباب ، ونبسطهم لمصافحة الأهل والصحاب ! . . .

وصدقنى إذا قلت لك إن هذه الغربة تبتدئ عندنا نحن معشر المصريين من قليوب إلى الاسكندرية شمالا ، ومن الجيزة إلى الدر جنوباً ، كلها غربة تستدعى الحسرة ، وتثير الزفرة ، وتبعث العبرة ، بل لا أكتمك إذا قلت لك إن بعض من نقلوا من الأرياف إلى شبرا مثلا استأنفوا السعى لينقلوا إلى دائرة قسم عابدين . . .

أصدقتنى الآن فى أن كل جو غير جو القاهرة ، بل سرة القاهرة ، خانق وجدير بالفرار ، أو لبس القناعات الوافية ، على الأقل ، كما ذكرت ؟

والآن ، أين الريف يا عالم ؟ ومن لنا به ؟ وكيف السبيل ، واحسرتاه ، إليه ؟

الريف البديع هواؤه ، العذب ماؤه ، الجميل رواؤه ، من لنا به ؟ من لنا به ؟

أعوذ بالله ! ما أنكر وجه القاهرة ، وما أخبث مناخها ، وأوخم هواءها ، وأعكر ماءها ، حتى نورها الكهربائى لقد أصبح ثقيلا يرمش له الجفن ، ويجهد النظر !

أرأيت كيف كانت حكمة الله الباهره ، وكيف انتقم للريف المسكين من هذه القاهرة ؟

بين الصفارة والريف

مما يجرى على ألسنة المصريين فى دعاء بعضهم على بعض « رُوحْ تجتَك غارة ! » وكنا نحسب أن القدر كان يرد هذا الدعاء أولا فأولا ، فلا يحل فى موضع الاستجابة أبدا .

وها نحن أولاء نرى الآن أننا ، فى هذا الحسبان ، كنا جد مخطئين ، فأن القدر ، فأن القدر إنما كان يجمع هذه الدعوات ويحفظها ، ولا يرد واحدة منها ، حتى إذا حل الوقت المقسوم ، استجاب دعوة الجميع على الجميع !

كل يوم عواء صفارة ، ينذر بمقدم الغارة ؛ فعلينا ، ونحن نجنى ثمرات دعائنا بعضنا على بعض ، أن نثبت ونتجلد ونصبر ، فان الله مع الصابرين .

وفى الحق إن صوت هذه الصفارات كريه جداً ، وثقيل على الأسماع جداً ، ومضعضع للأعصاب جداً ، حتى ليؤثر المرء وقوع الغارة نفسها على هذا النذير ، فى صوته المزعج النكير .

وقد لا يحق لنا أن نطمع فى أن تسند الحكومة إلى حناجر هذه الصفارات أوتار عود أو قانون ، أو أن تقيم فى كل حى فرقة موسيقية ، أو أن تطيف بالبلد ، كلما جاء النذير بمقدم الغارة ، كبار المغنيات

والمغنيين ، يهيبون بنا ، بأصواتهم العذبة ، على النبر الحلو والتنغيم البديع ، أن احذروا ، والتمسوا المخابئ ، واطلبوا النجاة بقدر ما تستطيعون !

ولكن ألا من سبيل إلى التخفيف من هذا النكر ، ولو بعض الشئ ؟ أو الاستغناء عن هذه الصفارات ، والتعويض عنها بالكثير ممن نسمع ، فى هذه السنين ، من مغنيات ومغنين ؟

وإذا زعمت أن من هؤلاء من هو أفسى حنجرة وأنكر صوتاً ، فلا يذهب عنك أن آذاننا قد ألفت هذا الغناء من بضع سنين ، ولا شك أن الالف والاعتياد يلطفان كثيراً من موقع الأهوال الجسام!

بقى أن نراجع أنفسنا ، فى شئ من الصفاء والدعة ، وهما موفوران فى عامة النهار ، والحمد لله ، نراجع أنفسنا ونسألها ، أمن الحق أن صوت هذه الصفارات كريه بهذا القدر ، مزعج إلى هذا الحد ؟ أم أن اقترانه بتوقع الأحداث المزعجة ، هو الذى يخلع عليه هذا الوصف ، ويحله من الأعصاب فى هذا المكان ؟

إن شئت الانصاف فى القول ، والعدل فى الحكم ، رأيت لهذا التعليل نصيباً من الحقيقة غير يسير ؛ بدليل أنك لا تجد للصوت المؤذن بانتهاء الغارة من الاستكراه والنبو على الأذن ، وشدة شك الأعصاب ، ما تجده فى الآذان بتقدم الغارة ؛ إذ الصفارة واحدة ، والحلق الذى ينطلق منه العواء واحد ! . . . إذاً فللظروف والملابسات دخل فى الأمر كبير . ولو أن الصوت فى الحالين نكير نكير نكير .

إذاً فلا مفر من الفرار ، ولا من صفارات الانذار ، وطلب السلامة للأعصاب ، من كل هذه الأوصاب ، وأين ، لعمرى ، يلتمس الفزع والملجأ الحصين ، إلا فى ريف مصر الجميل الأمين ؟

و إذا كان أصحاب الأعمال فى المدن لا يستطيعون أن يتركوا أعمالهم ، فلا أقل من أن ينزح آباؤهم وأمهاتهم وزوجاتهم وأولادهم ، فلا تنالهم ، فى الغالب ، الغارات ، ولا تؤذيهم النذر بالغارات ، وبعض الشر أهون من بعض .

وكذلك أشخص من أحملهم من الأهل والولد إلى الريف ، يتقدمهم ما يحتاجون إليه فى عيشهم الجديد ، من المتاع والعتاد .

ويشاء الله الكريم ألا تضيق صدورهم بالوحدة ، ففى مكان قريب أهل وأصهار وأولياء كرام . كما شاء تعالى ألا يستوحشوا ، إذا جن الليل عليهم ، فالريف ينام من العشاء الأولى ، فآنسهم بالراديو ، يغنيهم ، ويفاكهم ، ويحاضرهم ويسامرهم ، وينبئهم مختلف الأنباء . فالقرية ، على دقة جرمها ، وقلة سكانها ، تستصبح لحسن الحظ ، بالكهرباء ، يبعثها « وابور » كبير أقامه المجلس القروى هناك ، فالحمد لله الذى قرن ما أجرى من القضاء بلطفه ، وأردف ما قدّر من البلاء بكرمه وعطفه ، وصدق المثل العامى القائل : « قبل ما يبلى يدبر ! »

ولا بد لى من أن أراهم وأشهد مثواهم ، وأشركهم فى عيشهم الطريف ولو حيناً بعد حين . وأتوكل على الله ، فأشد الرحال إليهم ،

لا بل أستقل من القاهرة القطار السريع . وبعد جرى غير طويل ، أنقلب إلى القطار البطئ . وسواء أكنت فى هذا أم فى هذا ، فلقد كان شغل عينى وشغل نفسى طول الطريق ، هذه السيارات الكبيرة والصغيرة التى تقل المهاجرين من المياسير وغير المياسير ، وسيارات النقل الكبيرة تحمل أمتعة النازحين . بل عربات « الكارو » يجرها جواد ، وقد يجرها حمار ، لا يعلم إلا الله مبلغ جهده فى هذا السفر الطويل الثقيل !

أما إذا كان هذا الحمار عاشقاً قد شفه الوجد ، و براه طول القلى والصد ، فقد أولاه المبيت فى العراء خير ما يسعد العاشق المهجور على بلواه ، ويبرد من حرقة جواه ، بمناجاة النجم الساهر ، وشكوى صد الحبيب الغادر . فاذا تعذرت عليه رؤية الحبيب وقد قلى ، فهو ولا شك رائيه فى صفحة البدر إذا تجلى . ولقد يحمل البدر رسالة الوله والشوق إلى الأتانة ، والبدر خير من يبلغ الرسالة ويؤدى الأمانة .

أليس فى هذا بعض الفرجة من ذلك الضيق ، والتلطيف من تلذيع سوط السائق طول الطريق ؟

وكيفما كانت الحال ، فلقد يستطيع الشاعر أن يشبه السكة الزراعية بعقد ، و إن كان متلاحم الحبات ، فانه لم تنظمه يد جوهرى صناع : فهذى لؤلؤة صغيرة ، إلى جانب خزفة كبيرة . وهذى حبة من ذهب ، تليها أخرى من خشب ، وسبحان مقسم الحظوظ والأرزاق !

وكيفما كان الأمر ، فسرعان ما أحضرنى هذا المشهد قول المتنبى ، رحمة الله عليه :

وهجانٍ على هجان تُواتبـــك عديدَ الحبوب فى الأقواز
صفها السيرُ فى العراء فجــاءت فوقَ مثل الملاء مثل الطراز

حقاً ، لقد انتفضت القاهرة انتفاضة عنيفة ، فتطاير عنها أهلها (تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض) وراحوا يطلبون المثوى ذات اليمين وذات الشمال . ولعل بينهم من لم يتخيروا المأوى ، ولعل منهم من لا يعرفون الوجه ، وإنما هم يهيمون هيماناً حتى يأذن الله لهم بالمستقر والمقام !

هذه ، ولا ريب ، حالة جد مؤلمة ، وخاصة إذا كان هؤلاء النازحون ممن يجرون بأيديهم غلمانهم ، أو يحملون على أكتافهم أطفالهم الصغار ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !

على أنه بقليل من التسامح ، ويسير من التضحية ، يمكن إيواء كل هؤلاء الفارين ، وإنالتهم الأمن ، ومعونة المحتاج إلى المعونة منهم ، (والناجى يأخذ بيد أخيه) .

هذه شدة عامة ينبغى أن تتظاهر على دفعها الأيدى عامة . فمن كان فى بيته سعة ، فلا ضير عليه فى أن يودى إليه من لا يجد المأوى ، ومن كان فى حالة فضل ، فلا بأس عليه إذا رزق من فضل ماله بعض من لا يجد إلى القوت سبيلا . وإذا كان عدد هؤلاء كثيراً ، فان عدة سكان القرى ، واللاجئين من الموسرين ، أكثر كثيراً .

على أن ترك المعونة للمصادفات والحظوظ ، ليس من الحكمة فى شئ . بل لا بد من الأعداد والتنظيم المحكم ، فلا يتعذر المثوى على لاجئ ، ولا يسرف الجوع على أحد من المهاجرين .

نعم ، إن أهل الريف هذه السنين ، فى بؤس ظاهر ، وفقر بين . على أنه لن يتكاءد أعيانهم ومتوسطى الحال منهم أن يخرجوا لهؤلاء العائذين بالريف ما يمسك الرمق ويعصم الحياة . فاذا بسطت الحكومة ولو يسيراً من المعونة لهم ، أينما كانوا ، فقد هان الخطب ، وكفيت البلاد الشرور الكبار .

وإذا كان لى ما أقترحه فى هذا الباب ، فاننى أرى التعجيل بفرض ضريبة على تجار الريف ؛ لا يعفى منها كبارهم ولا صغارهم . على أن ما يجئ من ذلك يرصد لتلك المعونة . فتجار الريف أصبحوا يجنون من الربح ، بفضل النازحين من الموسرين وأنصاف الموسرين ، ما لم يكن يدخل منهم فى الحسبان !

وبعد ، فلقد كنت أحب أن أتحدث عن الريف ، وهذين اليومين اللذين قضيتهما فى الريف . ولكن لم يبق فى مساحة المقال متسع . فلنرجئه إلى مقال آخر ، إن شاء الله رب العالمين .

الأفندى

لا أحسب أن كلمة صارت من أعز العز إلى أهون الهوان كما صارت هذه الكلمة فى مصطلح الزمان !

وقبل كل شئ لعلك تعرف أن كلمة « أفندى » معناها السيد ، وهى من ألفاظ التشريف التى انحدرت إلينا عن سادتنا القدماء ، أعنى الأتراك . وعلى الرغم من أننا خلعنا عنا ، أو خلعت عنا السيادة التركية ، وعلى الرغم من أننا قد ظفرنا باستقلالنا ، فان أكثر ألقاب التشريف فى بلادنا ما برحت تركية ؛ « فأفندى » تركية ، و « بك » تركية ، و « باشا » تركية أيضاً !

وكل ما صنعنا فى هذا الباب ، عند ما اختلعنا من سيادة تركيا ، أننا أصرنا ، فى توجيه الخطاب ، هذه الألقاب إلى النهج العربى ، أما جوهرها فباق كما هو ، تركى وابن تركى . فبدلا من أنه كان يقال مثلا : « عزتلو أفندم » ، أصبح يقال : « صاحب العزة » ، وبدلا من أنه كان يقال : « سعادتلو أفندم حظرتلرى » ، أصبح يقال : « حضرة صاحب السعادة » ، على أن تلحق الأولى بلقب « بك » ، والثانية بلقب « باشا » .

أما « أفندى » فلقد علمت أن معناها السيد ، وأما الميم التى

توصل بها أحياناً فهى أداة الاضافة للمتكلم ، « فأفندم » معناها « سيدى » . ولهذا كان ولى الأمر إذا وجه الخطاب إلى رئيس « النظار » ، أو إلى من يقوم مقامه ، فى المناسبات المختلفة ، لا يكتب مطلقاً : « دولتلو أفندم » ، أو « عطوفتلو أفندم » ، بل يكتب : « دولتلو باشا » ، أو « عطوفتلو باشا » ، لما تعلم من أنه أجل محلا من أن يدخل فى سيادة أحد على أى وجه من والوجوه .

ونعود إلى كلمة « أفندى » ، فنقول إن أصحابها الترك كانوا يضنون بها أعظم الضن ، ويغلون قدرها أيما إغلاء ، وذلك على العكس من كلمة « بك » ، فان كل رجل هناك يكاد يكون « بك » ، وأرجو أن تنطق بالكاف ياء ، فذلك هو المنطق الصحيح . أما «أفندى» فكانت لقب ولى عهد المملكة العثمانية ، ووارث منصب الخلافة الاسلامية ، كما كانت لقب أعضاء البيت المالك هناك ، كذلك كانت لقب شيخ الاسلام .

ولما كان منصب قاضى القضاة فى مصر لا يتولاه إلا تركى ، بحكم السيادة العثمانية إلى سنة ١٩١٤ ، كان يقال له أو عنه « قاضى أفندى » ، وقد نضح العرف هذا اللقب على القضاة المصريين أيضاً ، وأعنى بالضرورة القضاة الشرعيين . على أن هذا اللقب ظل محصوراً فى دائرة هذا القضاء . ولا أدرى أبقيت منه بقية إلى الآن ، أم عفى عليه فيما عفى هذا الزمان ؟

نعم ، لقد كان يدعى المخاطب فى درج الحديث « بك أفندى » ،

ولكن « أفندى » مطلقة لا تكون ، كما أسلفنا ، إلا لأمثال من ذكرنا من سادة السادات وأعظم العظماء .

أما فى مصر ، وأعنى فى العصر الذى شهدنا أطرافه ، فان لقب « أفندى » ، وإن لم يكن له هذا الخطر ولا بعضه ، فلقد كان له حظ من الاجلال غير يسير ، فهو فى الغالب الكثير لقب الموظف فى الحكومة ، وناهيك بالموظف الحكومى فى تلك الأيام ! لقد كان هذا « الأفندى » موضع إجلال أهل الحق وإعجابهم . وكان أكثرهم يعود من « الديوان » وقد رشق قلمه البسط رشقاً أفقياً فى أعلى أذنه اليمنى أذاناً للناس بما صرف من الأمر ، وما قضى فى حقوق الرعايا وأرزاقهم ، إذاً فانه يمضى فى دمائهم وأعناقهم . ولهذا كنت تراه يمشى متمهلا متتايهاً ، ينلقى نظرات الاحترام والاعجاب .

ولم يكن حى من أحياء القاهرة تخلو رقاعه الكبيرة من بيت « ست أم الأفندى » ، وبيت « ست أم الأفندى » هذا كان شرعة الرائدات ، ومنابة القاصدات . إليه يحج نساء الحى ، وله يطلبن . لا يرحل الناس إلا نحو حجرته ، كالبيت يفضى إليه ملتقى السبل وكان لسائر البيوت الصوى والمنار ، فاذا استخبرت سيدة عن أحد المنازل ، دلتها صاحبتها عليه ببيت « ست أم الافندى » ، فتقول لها مثلا : اجعلى بيت « ست أم الافندى » على يمينك ، ثم انعطفى فى أول زقاق على يسارك وعدى من اليسار بيتين ، الثالث هو البيت الذى تطلبين .

ولقد كان هناك أيضاً بيت « ست أم البك » على أن هذه البيوت

كانت نادرة جداً ، بحيث لا يقع فى الحى كله إلا اثنان منها أو ثلاثة على الأكثر .

وكيفما كان الأمر ، فانى أرجو ألا يميل بك الظن إلى أن « ست أم البك » كنيت بذلك لأن ابنها « البك » موظف فى الحكومة كشأن « ست أم الافندى » . العفو ! العفو ! وهل كان يبلغ الموظف مرتبة « البكوية » فى الحكومة وأمه لا تزال على ظهر هذه الأرض ؟ بحسبه أن يسعى سعادته سعى الأحياء ، وإن ضربته السنون بمائتى داء ! « فست أم البك » إذاً لم تكن أم موظف ، ولكن كانت فى الغالب مرضعاً لولد من أولاد الذوات ! ولكى تزداد علماً بموضع كلمة « أفندى » من جمهرة الشعب ، أذكر لك ما روى لى ، من أنه من نحو خمسين سنة ، أراد بعضهم أن ينشئ فى حى الحسين ، رضى الله عنه ، « قهوة » فخمة عصرية (مودرن) ، تليق بمجالس الخاصة والمترفين من الناس ، فلم يجد أكرم ، ولا أعظم ، ولا أفخم من أن يدعوها ويكتب على جبينها بالخط الطويل العريض الجميل « قهوة أفنــدية » !

وبعد ، فذلك بعض العز الذى ناله لقب « أفندى » فى الزمان الطويل . أما الآن ، فكفاك الله شر الهوان ، وعصمك من الاستكانة بعد السلطان ، وحفظ مجدك من غدر الزمان !

أفندى ! وهل أصبح يطيقها موظف أو طالب أو فتى يعيش بفضل إرث ، أو شاب تجرى عليه وظيفة من وقف ؟ فاذا دعوت

أحدهم « بالأفندى » تجهم لك ، وانعقد ما بين عينيه ألماً وغضباً . وربما ابتدرك من القول أو الاشارة بما يسوءك . فاذا هو قبلها منك لشأنك ولموضعك ، فهو إنما يتجرع ولا يكاد يسيغ !

لقد أضحى الجميع يتداعون بلقب « البك » ، صغارهم وكبارهم فى هذا بدرجة سواء ! ولا بأس بهذا وليكن شأننا فيه شأن إخواننا الأتراك .

بقيت « الأفندى » التى ذلت فى هذا العصر وهانت ولم يبق لها من أمل تعيش عليه إلا فى جماعات الحجاب والسعاة فى الدواوين ، فهم الذين يرضونها ، ويطمئنون بها ، ويستريحون إليها دون سائر المطربشين .

أستغفر الله ! فلقد نسيت عسكرى الدورية ، وهل يستطيع حوذى من أى صنف ، أو بائع من هؤلاء المترفقين بأبدانهم ، أو نحو هذين ممن يرهبون سطوة جندى النوبة ، أو يدعوه بيا عسكرى ، أو يا جاويش إنهم جميعاً ليدعونه « بيا أفندى » وكثيراً ما تكون هذه الدعوة المحببة سبباً فى الاغضاء ، أو التلطف فى القضاء !

أرأيت كيف صحت العبارة العامية فى هذه الكلمة : « يقطع من هنا ويوصل من هنا ! »

ولا أرى ، قبل أن أختم هذه الكلمة ، بدأً من الاشارة إلى كلمة أخرى ، بعثها السعد من الأرض وعلا بها على السحاب ؛ فأضحت لأجل أصحاب المناصب أجل الألقاب .

لا أدرى إن كنت ندرى أو لا تدرى أن ألقاب التشريف كانت تجرى صعداً على النحو الآتى : حميتلو « بتشديد الياء » . وهذه لأصغر طبقات الموظفين . فرفعتلو ، فعزتلو ، فسعادتلو ، فعطوفتلو ، فدولتلو . وترجمتها على الولاء : صاحب الحمية ، صاحب الرفعة ، صاحب العزة . . . الخ .

فترى أن هذه الرفعة قد طارت من هذا المكان ، وحلقت حتى أمست أعظم تشريف لرئيس الحكومة ولرئيس الديوان !

آمنت أن من الألقاب ما يهبط ومنها ما يصعد ، ومنها ما يشقى ومنها ما يسعد ، (وكذلك الدهر حالا بعد حال) . ولله الأمر من قبل ومن بعد .

فى الضمير العام

يعترضك البياع من هؤلاء البياعين المضطربين فى الطرق بسلعهم فيطرحها لنظرك ، وقد تحيلها يده بين ذقنك وفخذك إن كنت جالساً حتى يحك بالوعاء : صندوقاً أو عدلا أو سلة ، صدرك . وقد تنازعك نفسك إلى أن تشترى ، فتسأله الثمن ، فتراه يحلف لك مبتدئاً مرتجلا ، متبرعاً محتسباً ، ولم تكن قد باديته بشك فى قوله أو جرح فى ذمته . يحلف لك بكل مؤثمة من الأيمان أنه إنما اشترى بعشرة قروش ، ولا يطمع فى أكثر من قرش واحد أو نصفه ربما لا يقوم بشئ من طول سعيه وكده ؛ وإنه لا يتحرج من أن يدخل فى يمينه الطلاق ، وفقد الولد ، وذهاب البصر ، وبطلان الشق بضربة الفالج الخ . . . ! وتعرض عليه ثلاثة قروش مثلا أو ما دونها ، فيتأبى ويتعذر ، وقد يتركك ويمضى مهرولا مغذاً ، ليدخل فى وهمك أنه لم يكن غالياً فى عرضه ولا متأرباً ، فان راجعته وإلا ظل فى هرولته حتى يغيب عن نظرك ؛ ثم لا يلبث أن ينقلب إليك ، فيحط الثمن إلى ثمانية ، فالى ستة ، وهكذا لا يزال يتدلى حتى يصل إلى ما عرضت عليه أول الأمر . وكذلك تعقد الصفقة فى سراح ورواح !

إن ما يستدعى البحث حقاً ، بل إن ما يثير الفزع حقاً ، أن

يحاول هذا الرجل أن يغشك ثم لا يلبث أن تنكشف محاولته وأن يحلف بكل ما يحلف به ، وسرعان ما يظهر كذبه وبينه وحنثه . ومع هذا وهذا لا يبض جبينه بقطرة واحدة من خجل أو حياء ؛ بل إنه ليقاوسك فى ألوان من الحديث كأن لم يحمل وزراً ولم يقترف إثماً ، ولم يأت أى شئ ومما يعاب به الناس !

وإن مما يستدعى العجب الأعجب ، بل إن مما يثير الفزع الأفزع أن أكثر الناس ، حتى المتعلمين المثقفين منهم ، لا ينكرون هذا على أولئك الباعة ولا يزجرونهم ، ولا يظهرون الاشمئزاز منهم ، ولا ينهونهم عن العودة لمثله !

وإن اطراد ذلك من جمهرة الباعة ، واطراد هذا من جمهرة المشترين ، ليبعث على الحكم ، مع الخجل الشديد ، بأن الغش ، والكذب ، والحنث بأغلظ الأيمان ، هو من العرف المعروف فى هذه البلاد .

ومن الحق الذى لا يعتريه شك ، الحق المؤلم الموجع ، أن هذه الطبقة الدنيا فى بلادنا ، على وجه عام ، لا تشعر ألبتة بشئ يدعى الضمير ؛ يغشك البائع فى السلعة ، وإذا استطاع طفف الكيل أو أخسر الميزان . ثم تراه يكذب فى القول ، ويحنث فى اليمين ، ما يجد لشئ ومن ذلك ألماً ، ولا يحس له خجلا ولا ندماً ، إنه لا يحس شيئاً من ذلك ألبتة ، بل إن نجاحه فى غشه وزيفه واستراحة الناس إلى كواذب أيمانه لما يبعث فيه عجباً وأريحية . حتى إذا خلا إلى أمثاله وأكفائه ، جعل يباهى بذلك ويكاثر كما يتبارون

هم أيضاً فى التباهى والتكاثر بما وقع لكل منهم من مثله !

هذا هو الخطر الأعظم ، يجرم المجرم ولا يرى أنه أتى شيئاً ، ولو قد شعر ، حتى أضعف الشعور ، بأن فى الجرم إثماً ، وأنه أمر مكروه لا يليق بالانسان أن يقارفه ، فانه ولا ريب مما ييسر السبل إلى إصلاح هذه النفوس ، فان بعث الضمائر من الوقود أهون على الداعين من خلقها من العدم . قلت إن غش الباعة وحنثهم بأغلظ الأيمان هو من العرف المعروف فى هذه البلاد ، وأذكر أن من قرابة ثلاثين سنة ، إذا كان موسم الخيار وأقبل الليل ، صف باعته عرباتهم بجوار مسجد السيدة زينب رضى الله عنها . وعلى كل منها مصباح كبير ، وجعل كل منهم يصيح ملء لهاته بسمع مأمور القسم ومن قبله من رجال الشحنة : «بالحلال خمسة وبالحرام ستة ، يا جمع العصارى يا لوبية» .

ولقد رأيت هذا بعينى وسمعته بأذنى ، وإنما خصصت هذا المكان لأن حى السيدة هو الحى الذى نشأت فيه ، ولا بد أن الأمر كان كذلك فى سائر الأحياء .

بالحلال خمسة وبالحرام ستة ! ولست بحاجة إلى أن أبين أن المراد بالحرام الوزن الناقص . ومعنى هذا أن إخسار الميزان مما يجوز أن يقع عليه التعاقد بين البائعين والمشترين ! وأحسب أن هذا مالا يقع له شبيه فى أى بلد آخر من بلاد الله .

وأغلب الظن أن إمساك الباعة الآن عن عرض التصافق على الحرام إنما مرجعه إلى خوف العقوبة القانونية التى تغلظ عليهم هذه السنين فى النقص من الموازين .

ولقد أبرزت فى هذا الحديث جماعات البياعين ، لأنهم يطالعون الناس فى كل ساعة ويعترضونهم بكل سبيل ، على أننا لو بسطنا فى آفاق النظر لراعنا أن نرى ما نرى من أكثر جماعات الصناع ومن يعالجون ألوان الحرف فى هذه البلاد ؛ أما خلف المواعيد فهذا قدر مشترك بين الجميع .

وأما استبدال مادة رديئة بأخرى جيدة (وهى المتفق عليها فى عقد الصفقة) ، وأما قلة العناية بتجويد صنعة ، وعدم التأنق فيها طوعاً لمطالب الفن ، فهذه الخلال يقع فيها الاختلاف بين جماعات الصانعين .

وهذا الاختلاف يرجع فى الغالب إلى يقظة المستصنع من جهة ، وإلى كفاية القائم على شأن الصناع ومبلغ حرصه على السمعة من جهة أخرى . أما الضمير ، الضمير وحده فلاغرو عليك إذا أسقطته من الحساب !

وبعد ، فان العلة الحقيقية لمعظم ما نشكو من التدهور الخلقى هى شيوع الكذب ، وإن شئت الدقة قلت هى أننا ، على الجملة ، لا تنزل الكذب المنزلة الحقيقية به من الأفكار والاستفظاع ، ولا نحتفل للنهى عنه ، فضلا عن المبادرة بالعقوبة عليه .

وشيوع الكذب ، مع الأسف العظيم ، ليس مقصوراً على الطبقة الدنيا من الناس ، بل لقد عدا على الكثير ممن أخذوا بحظ من العلم والتهذيب ، حتى لقد ترى الرجل أو الفتى يكذب فى غير حاجة ملجئة

إلى الكذب ، أو لدفع ما إن دفعه بالصدق والصراحة لم يمسه من غوائله شر كبير ولا صغير ! ولو أننا ننزل الكذب منزلته التى مهدتها له قواعد الأخلاق ما أسفناه فى هذا اليسر العظيم !

وأثر الكذب وعدم الاكتراث بالأقدام عليه يختلف باختلاف الناس ، وحظ كل منهم من التربية والتفكير والنظر إلى عواقب الأمور . ولهذا تراه فى بعضهم يسهل ارتكاب أفظع الجرائم إذ هو لا يعدو فى سواها إلا على التافه من المخالفة لقواعد الأخلاق ، وبين هذين الحدين مراتب تتفاوت طوعاً لتلك الخلال فى الناس .

البيئة عندنا لا تحارب الكذب ، بل لا تكاد تنكره . وإنى لأكره أن أقول إن كثيرين من الآباء والأمهات فى بلادنا يحملون الولد عليه ، وقد يضطرونهم إليه .

وإذا قدرت أن قوام عيش الجماعات هو الثقة ، فانظر كيف يعيش معشر لا ثقة لأحد فيهم بأحد ، لأنهم بين كاذب ومكذب لا يركن من صاحبه إلا على حذر وارتياب !

فالنجدة ، النجدة ! يا معشر القائمين على تربية النشء وعلى حراسة الأخلاق .

فن الاعلان

وهل بقى من لا يؤمن بأن الاعلان أصبح فناً له كسائر الفنون ، قواعد وأصول ؟ بلى ! هو فن له أثر وله خطر ، يتدارسه طلابه ويستذكرون مسائله وقضاياه ، و يراجعون الأساتيذ فى ما يتشبهم عليهم من تلك المسائل ، ويتبارون فى حذقه وتجويده ، حتى يبلغ بعضهم فيه رتبة العبقرية والنبوغ .

وما لفن الاعلان لا يكون له هذا الشأن وأجل من هذا الشأن ، وهو الوسيلة الفذة إلى تحريك التجارات ونفاق الأسواق ، و إيثار الفتى ، وذهاب الصيت فى كل مكان . بل لقد يكون إحسان الاعلان أهم الداعيات إلى ميل جماعات الدول إلى دولة ، وصفو قلوب الأمم إلى أمة ، واضطغانها على عدوها مهما يكن خطبه . ومن شأن هذا العطف وهذا البغض أن يبعث على الامداد بألوان المعونة المادية من جهة ، والكبد المنع والمضارة من الجهة الأخرى ، مما يسعد على النصر ، ويعجل للخصم الغلب والقهر .

وروى أن سائلا سأل المثرى العظيم المستر فورد صاحب مصانع السيارات المعروفة باسمه : لو تجردت من الغنى ؛ ولم يبق فى يدك إلا ألف جنيه ، فما عسى أن تصنع ؟ فقال : أخرج منها أولا

سبعمائة وخمسين للاعلان ، وأستأنف السعى فى الحياة بالباقى !

ولقد أدركت مصر حظ فن الاعلان وأثره البعيد فى المطالب الخاصة والعامة ، فجعل سكانها ، أو من يعنيهم الأمر من سكانها ، يتبارون فى تجويد الاعلان ومد رواقه ، وبسط آفاقه ، حتى بذوا الأمريكان ، وكانوا مضرب المثل فى هذا الشأن !

وأرجو ألا تتعاظمك هذه الدعوى ، فتعجل بالحكم علىّ بالتزيد أو الغلو ، فسأقيم لك الدليل ، إن شاء الله !

ولنمش أولا فيما كنا فيه من أثر الاعلان ، سواء فى استخراج الأموال ، أو فى استدراج العواطف بشتى الأساليب . ولقد تكون ماضياً فى طريقك ، ما بك أن تشترى أى شئ ، فيميل بصرك إلى معرض من معارض بعض الدكاكين (الفترينات) ، فيستهويك بعض السلع المعروضة بجمال شكلها ، بل بجمال وضعها ، فى بعض الأحيان ، فتتقدم لابتياعها ، مهما يجشمك الثمن . وهذا كما أسلفنا من أثر جودة الاعلان .

ولست بحاجة إلى من يقول لك إن جميع مدن المملكة المصرية ، لا فرق بين كبيرها وصغيرها ، دانيها وقاصيها ، أصبحت تزخر بفنون الاعلانات . فهذه الصحف السيارة ، والمجلات الدورية وغير الدورية ، تسيل أنهارها بالاعلان . وهذه جدران المبانى العامة والخاصة لا يكاد يعرى متر مربع فيها من الاعلان ، بين مطبوع على الأوراق ، أو مكتوب على الحائط ، أو متألق فى أعلى المبانى بنور الكهرباء . دع آلاف الاعلانات التى يلقاك بها الموزعون فى كل سبيلها . والاعلانات

الصوتية (الميكرفون) التى تجول بها السيارات فى الطرق والأسواق الخ . . .

ومن أظرف ما يذكر فى هذا المقام أن للحكومة معهداً كبيراً ، يقع على شارع من الشوارع الرئيسية فى قلب القاهرة ، وصور هذا المعهد يمتد إلى مسافة كبيرة من جانب الشارع . وقد بدا للقائمين على تكليسه (بياضه) أن يبالغوا فى تزيينه وتبهيجه ، بتقسيمه إلى مربعات متساوية المساحة . ولم يمض على هذا التزيين والتبهيج بضعة أسابيع ، بل بضعة أيام ، حتى كانت جميع هذه المربعات محلاة بالاعلانات المختلفة ، ما خلا مربعاً واحداً لا أدرى لماذا ترك المسكين عريان ، لا أثر للنقش ولا للكتابة فيه !

فهناك المهلك ، والمبيد ، والبظ ، وورنيش العمده ، وطربوش النسر الخ . . . ومن العجيب أنها كلها مكتوبة بالحبر الأسود وبأردأ الخطوط ، حتى يخيل إليك أنها منضوحة بوعاء الحبر نضحاً لم تجر بها أنامل ، أستغفر الله ، بل أكف الكاتبين !

وطال الزمن على هذا ثم طال . وأخيراً يظهر أن القائمين على شأن هذا المعهد الحكومى قد عز عليهم أن يبقى ذلك المربع فذاً بين سائر المربعات ، فاستخاروا الله وكتبوا فيه : «ممنوع لصق الاعلانات» .

ولقد زعمت لك أن مصر قد برعت أمريكا ، فضلا عن أوربا ، فى فن الاعلان ، واستنظرتك الدليل . فهاكه الآن .

لعلك تعرف ، ولعلك لا تعرف أن الأطباء لا يعلنون عن شأنهم بأية وسيلة من الوسائل فى بعض البلاد الأوربية . ولا شك فى أن

هذا من الجهل بفن الاعلان الناشئ عن الجهل بفوائد الاعلان ، فاذا أحلت الأمر على أن القانون فى تلك البلاد يحظر الاعلان على الأطباء ، فما كان عسيراً عليهم ، لو أرادوا ، السعى إلى إلغاء هذا القانون ، ليفيدوا ، ما شاء الله ، من طيبات الاعلان .

أما عندنا ففوق إعلانات الأطباء والمحامين فى الصحف السائرة وغير السائرة ، فلقد ترى « اليافطة » الطويلة العريضة مرفوعة على ساريتين تطاولان السحاب ، وهذه على جانب الشارع الرئيسى ، ثم أخرى على مدخل الشارع الفرعى ، ثم ثالثة على ناصية المنعطف ، ثم رابعة على صدغ العمارة ، وكلما انعطف بك السلم رفعت لبصرك « يافطة » ، وهكذا حتى تبلغ باب العيادة أو المكتب ، فاذا هو مرصع بجمهرة من « اليافطات » المختلفة الأشكال والخطوط والأحجام .

ولا يبعد أن يتقدم فن الاعلان فى بلادنا حتى يخترع شباكا سحرية تصطاد الزبائن ، وتسحبهم فى لطف ودعة ، حتى تصل بهم إلى العيادة أو المكتب فى أمان ، وما شاء الله كان !

وأبدع من هذا وأبرع ، أن يعلن الطبيب أنه إذا لم يكشف من المرض فى ٤٨ ساعة فقط ، فانه يرد إلى العليل ما دفع من النقود .

أرأيت مثلا أبلغ من ذلك فى الكفاية ، والثقة بالنفس ، والتمكن من الفن ، والقدرة المستيقنة على شفاء العلل ، مهما تعاصت فى ٤٨ ساعة لا تزيد ولو دقيقة واحدة من الزمان ؟

ولولا فضل الاعلان ما تسنى للذين ضربتهم العلل ، وقست عليهم الأسقام ، وألحت الأوجاع والآلام ، أن يبرأوا عن عللهم ،

ويتخلصوا من آلامهم وأوجاعهم فى مثل هذا الزمن اليسير ، والشفاء مكفول ، و إلا فالمال مردود ، ومرفى غير منقوص .

ومن الآيات التى تشهد لمصر بالبراعة والفوقان ، فى فن الاعلان ، أنك ترى صاحب مصنع الأثاث مثلا ، يجلو صورته هو بدل أن يجلو عليك صورة كرسىّ ، أو سرير ، أو ثريا ، أو صندوق ، أو منضد « ترابيزة » ، فإن الانسان ، من غير شك ، أكرم وأشرف من كل ما على وجه الأرض من صنع الانسان . ثم أنه ، من غير شك أيضاً ، أحسن خلقاً وأجمل شكلا من كل ما أخرجت مصانع الشرق والغرب ، من فاخر السرر والكراسى والصناديق والثريات والأنضاد . أليس قد قال الله تعالى فى كتابه الكريم : « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم »[1] ، صدق الله العظيم .

أما التبريز فى العبقريات ، و إصابة غاية الغايات ، ففى التفات صاحب المطعم عن أن يصور فى إعلانه عن طعامه حملا مشوياً ، أو أرنباً برياً ، أو ديكا روميا ، أو سمكا طرياً ، أو « طاجناً » فرنياً ، أو ثمراً جنياً ، أوكامخاً شهياً ، أو نحو ذلك مما يزعمون أنه يبعث الشهوة إلى الطعام ، ويحفز المعدة للازدراد والالتقام . بل تراه يلتفت فى إعلانه عن هذا الكلام الفارغ ، ويصور شخصه هو وعلى ثغره ابتسامة أحلى وأشهى من كل ما أنضجت الأفران من حلوى وسمك ولحمان ، ومن كل ما حملت الأغصان من فاكهة ونخل ورمان !

أصدقت ، بعد هذا ، أننا قد بذذنا الأمريكان فى فن الاعلان ؟

---

(١) سورة التين .

التأمين على الموت

وسيأخذك العجب حين يقع بصرك على هذا العنوان ، وستوجه الأمر على الخطأ ، فتظن أنني أردت أن أقول : « التأمين على الحياة » فقلت : « التأمين على الموت » ، فبين الحياة والموت تضاد ، والتضاد من أقوى العلاقات . وقد يتبادر إليك الظن بأنني أعبث أو أمزح بقلب المعنى ، والدلالة بالنقيض على النقيض !

وإنني أؤكد لك ، يا سيدى القارئ ، أنني لم تلحقني خطأ ، ولم يزلقني غلط ؛ فقد تحريت هذا القول تحرياً ، وتعمدته تعمداً . وأؤكد لك ثانياً أنني لا أقصد إلى عبث ولا إلى مزاح ، فالأمر أجل من ذلك وأعظم . وستعلمن نبأه بعد حين !

فاذا استشرفت نفسك إلىعلالة تبل بها الصدا ، أو لمجة (تصبيرة) تشد بها المتن حتى يأتى الوقت المقسوم للبيان ، فلا بأس علىّ بذاك ، إذاً فاعلم ، علمك الله الخير وحجب عنك المكروه ، أنه لن يطوى من الزمن طويل حتى تقوم فى مصر شركات « للتأمين على الموت » بجانب شركات « التأمين على الحياة » !

ولأول مرة تسبق مصر العالم جميعاً فى ابتكار هذا اللون من النظم المالية ، بل إنها ستتأثر بهذا النظام دون العالم جميعاً !

وبعد ، فلقد تعلم أن فى مصر أزمة زواج تشتد عاماً بعد عام ؛ وهذه الأزمة تنحصر فى المدن ، لم تطرق القرى والحمد لله !

ولقد زعمت فى بعض مقامات الكلام (لا أدرى أفى الراديو أم فى بعض الصحف أم فيهما كليهما) زعمت أن هذه الأزمة ترجع إلى أسباب عدة ، أهمها ما أصبحت تقتضى حياة الزوجية ، فى هذا العصر ، من جليل النفقات .

كانت البنت من أوساط الناس إذا تزوجت لا تكاد تجشم الزوج أو أولياءه شيئاً ، فطعامها من طعام أهل الدار ، وكسوتها إزاران ورداءان فى العام ، وما حاجتها إلى حذاء وهى حِلس خدرها طوال الأيام ؟ إذاً فى الكوث (الشبشب) على رأى أستاذنا العلامة الشيخ مهدى خليل ؛ إذاً ففى الكوث والقبقاب غنى وكفاية .

ثم إنها توفر على الأحماء أجور الخدم وسائر تكاليفهم بما تقوم به من العجن والخبز ، والطهى ، وغسل الثياب ، وكنس الأرض ، ونفض الأثاث ، وتقديم القهوة للزائرات ، وصنعها للزائرين ، وخدمة الطفل الصغار الخ . . .

والآن لا تحسن البنت الحضرية شيئاً من هذا ، وقد لا تعرفه ، وإن عرفته وأحسنته لا ترضى بأن نعالجه أنفة وحفظاً للكرامة ، ودعنا من الأنفة والكرامة ، وحدثنى بعيشك ، متى تضطلع البنت أو الزوجة الحضرية بهذا أو ببعضه ، ولا بد لها كل يوم من غشيان السينما وغيرها من دور التسلية والترويح ؟ ولا بد لمن يسهر الليل

من أن ينام صدراً من النهار . ولقد يتصرم سائره فى الاختلاف إلى الخياطة ، ومتاجر الثياب والزينة ، وزيارة الأصدقاء والأتراب ، والفرج فى المنزهات فى صحبة الزواج أو بعض ذوى الأرحام ، واستقبال الضيفان . وناهيك بما يستهلك من الوقت ، بعض النهار وسهبط الليل ، فى التجمل والتزين ، وتصفيف الشعر طوعاً لآخر بدع (مودة) ، سواء جرى ذلك فى البيت أو فى دكان الحلاق . ولا بد أن يكون لقراءة الروايات من مساحة اليوم حظ غير قليل .

ثم إن هذا وهذا وهذا لقد ضاعف نفقات الزوجية أضعافاً كثيرة ، فالسينما وسواها من دور التسلية أجر ، وللركوب فى الغدو والرواح أجر ، ولتنظيم شعر الرأس coiffure أجر . ولا تنس تشذيب أصابع اليدين وصبغهما manucure ، فلذلك كذلك أجر .

وإياك أن تسقط من الموازنة بين نفقات المعيشة اليوم ونفقاتها بالأمس ، إن تلك المخدورة فى الدار طوال الأيام فى غير حاجة إلى الاستكثار من الثياب ولا تعديد الألوان ولا الاغلاء فى الأثمان . أما سيدة اليوم وفتاته ، فان موجبات الأناقة ، أو على التعبير العامى الشائع « الشياكة » لتقتضيها ألا تختلف عليها الأنظار وهى فى ثوب واحد ، بل لو استطاعت لاتخذت كل يوم من الثياب والأحذية جديداً ، ولبست مستحدثاً طريفاً ، بل إن من السيدات لمن تأنف أن تضع عليها من الثياب فى الليل ما وضعت بالنهار .

والحاصل أنك إذا جمعت هذه النفقات الهائلة إلى الخسارة المالية الناشئة عن هجر السيدات للقيام بتدبير المنزل ، ونفورهن من الاضطلاع

بشئون البيت — تجلى لك وجه العذر فى إعراض الشبان عن الزواج فى هذه الأيام . وكيف لهم بالمال الذى يكافئ هذه النفقات الجسام ، فوق ما تجشمهم تكاليف السكن ونفقات الطعام؟

نعم ، لقد أعرضت عن الزواج كثرة الشبان الذين يجرون على عرق من التثقيف والتهذيب ، لأن عائداتهم — أو مواردهم بالتعبير الحديث — لا تفى بحاجاتهم الكثار الثقال فى هذا الزمان . فاذا فكر أحدهم فى تحصين نصف دينه اقترن هذا التفكير بالتماس الزوج ذات المال ، لتعينه بمالها على شأنه ، وتضع عنه بعض حمله ، فاذا لم يكن لها مال حاضر فحسبه غنى الأب أو الأم و إنهما إذا لم يعينا فى الحاضر ، ففى ميراث أحدهما أو كليهما عزاء وشد للمتن ، وعون على موالاة السير فى طريق هذه الحياة .

و إننى أعرف أن كثيرين من الشبان لم تطلب نفوسهم بتوثيق عقدة الزواج إلا بعد أن أخرج لهم الأحماء حجج أملاكهم ، إن أطياناً زراعية ، و إن أبنية قائمة ، فاطمأنوا إلى صحتها واستيفائها لشروط عقود الملكية . وربما مضى أحدهم فى سر من أولياء الفتاة إلى المحكمة المختلطة ، فاستخرج الشهادات العقارية الدالة على خلو الأعيان من كل رهن أو اختصاص أو امتياز ، حتى يقبل مطمئن الضمير على الزواج .

ولكن ! . . . آه ولكن ! . . . ولكن من ذا الذى يضمن أن تقصر آجال هؤلاء الأصحاء ، لتحق التعزية ويعجل المقدور بالرجاء ؟

وما يدربنا لعل أعمارهم تطول وتطول ، حتى يقيموا هم المناحات على البنات وأبناء البنات ؟

إذاً فينبغى أن يضاف إلى الاطمئنان على صحة عقود الملكية الاطمئنان إلى أن الرجل قد أسن وهرم ، وتزاحفت عليه العلل من كل جانب . ليضمن العريس أن أيام حميه فى الدنيا غير محدودة ، وأن خطاه إلى الضريح أصبحت إن شاء الله معدودة !

و إنى لأعرف رجلا واسع الغنى ، ذا وقار ودين ، له بنت أوفت على غاية من الجمال والرشاقة وحسن الأدب . وقد أخذت بحظ من علوم العصر وفن تدبير المنزل . وأسرة ، هذا الرجل على استنارتها وقوة ثقافتها ، ما برحت تحافظ على جميع التقاليد التى تحرص عليها كل أسرة تشعر بالكرامة والاحترام فى هذه البلاد .

ويتقدم شاب موظف فى الحكومة لخطبة الفتاة ، وترضى الأم ، فى سرّ من بعلها ، باخراج أسانيد الملكية للخاطب ، وأنت خبير بلهفة الأمهات على تزويج البنات . وبعد إجراء اللازم من فحص هذه المستندات ومراجعة دفاتر المحكمة المختلطة ، والاطمئنان إلى أن الأعيان نظيفة لم يعلق بها شئ من الحقوق وحينئذ صرف عنان السعى إلى تفقد صحة حميه العزيز .

وأول مابدا له من هذا أن يجعل لاحدى خدم الدار جعلا على أن تريه مناديل البك التى فى طريقها إلى الغسل . فتظاهرت الخادم بالرضا ، وواعدته زماناً ومكاناً ، ومضت من فورها إلى سيدتها فأخبرتها الخبر . فأشارت إليها أن افعلى ، وحذرتها مطالعة سيدها بذاك .

وما أشد خيبة المسكين ، إذ يبسط المناديل كلها ظهراً وبطناً ، ويجد النظر فى خيوطها خيطاً فخيطاً ، حتى يكاد من شدة التحديق ينفض نسجها نقضاً ، فلا يرى فى أيها أثر الدم من نفثة صدر . ولاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

وما له يأس ؟ وما له يقنط ؟ أفكتب على الناس ألا يموتوا إلا بذات الصدر ؟ وإذا كان السل معجلا للآجال ، فلا شك فى أن السكر والزلال من حبائل عزرائيل .

وهنا تقوم مشكلة . فان أخذ النماذج (العينات) من بول الرجل لتحليلها يقتضى ولابد علمه ورضاه فلبس للأبوال شأن المناديل . إذاً لم يبق إلا إتخاذ الصراحة . ولا شك أن كل زواج لا تقوم وسائله على الصراحة لا خير فيه . بل قلّ أن يكفل له بقاء . وما كاد الرجل يسأل فى هذا حتى ثار ثائره ، وجن جنونه . وهم بالبطش بالرسول ، لولا أن أسعفته ساقاه بالفرار . وأرسل البك فى دعوة ابن أخيه غير المتعلم ، وعقد له على بنته لساعته .

وبعد ، فليس كل الناس بقادر على أن يرغم ابنته على الزواج من قريبه ، واقعاً شأنه فى الحياة ومن هوى الفتاة حيث وقع ، وليس كل الناس بقادر ، إذا طاب له ، على أن يعضل ابنته حتى تنشيخ وتعنس . وليست الآجال بأيدى الخلق ، حتى يعجل الآباء الموسرون بآجالهم ، ليتقدم لبناتهم الخاطبون من شباب هذا الزمان .

إذاً لم يبق إلا حل واحد لهذه المشكلة الاجتماعية التى تعانيها

مصر فى هذه السنين . حل واحد يستدرج الشبان للزواج ، ولا بأس به على البنات ولا على آباء البنات . بل إنه فوق هذا وهذا ليفسح فى النظام الاقتصادى ويضيق من مساحة العطلة فى البلاد .

وهذا الحل الفذ الذى لا حل قبله ولا بعده ، هو أن نؤسس فى مصر شركة أو شركات للتأمين على الموت تقوم بجانب شركات التأمين على الحياة . وهذه شركات التأمين على الموت ، وقاك الله البليات ، وعصمك من خطبة الشباب للبنيات ، تجرى فى معاملاتها على عكس ما تجرى عليه شركات التأمين على الحياة ، و إليك البيان .

يؤمن الشاب الخاطب على موت حميه الموسر أو حماته الموسرة بمبلغ معين ، يؤديه هو للشركة إذا حم القضاء ، وحل إرث الأحماء . وذلك لقاء قسط شهرى أو سنوى معين ، تؤديه الشركة للشاب المؤمن . وهذا القسط يقل ويكثر طوعاً لمبلغ التأمين من جهة ، وصحة الحم العزيز أو الحماة المحبوبة من جهة أخرى . و بهذا النظام يكفل اليسر العاجل للشاب ، والمغنم الآجل للشركة . فى حين لا يوتر المرحوم أو المرحومة فى زيف ولا صحيح ، اللهم إلا وهو ملحود فى الضريح . و إن من قد دس فى التراب ، لفى شغل بحساب غير هذا الحساب !

ولعلك قد وقفت على هذا النظام المالى البديع ، فى غير حاجة إلى من يزعم أن أحسن « زبائن » الشركة وأولاهم بالأغلاء فى الأقساط وأجورهم بعدم المبالغة فى مقدار التأمين ، هم الذين شاعت فيهم الأسقام وألحت عليهم العلل ، ومن خنقتهم الذبحة

أو أبطلهم الشلل . فاذا كان فى البول سكر أو زلال فقد تراءت المنى وتدانت الآمال . وإذا كان مع السكر أستون acétone فالحظ مكفول مضمون . وإذا كان فى الزلال سلندر cylindre ، فذلك السعد الذى لا يقدر . إذاً فقد حق البسر والبسط ، وهبط التأمين وارتفع القسط . والله يرزق من يشاء بغير حساب ، ولو من طريق العلل والأسقام والأوصاب !

فليبتهل إلى الله من شاء من ذوى اليسار ، أن ينعم عليه بالعلل التى تقصف الأعمار ، حتى يفرح بالأكفاء الظرفاء من الأصهار ، دون أن يوثر من درهم ولا دينار ، فاللهم قنا الغنى فى الدنيا وقنا فى الآخرة عذاب النار .

شركة تنشيف الريق

أكثرت الصحف فى هذه الأيام من ذكر مقابلات لحضرة صاحب المعالى وزير الأشغال ، خاصة بتخفيض ثمن المياه فى القاهرة ، كما تردد خبر اجتماعات اللجنة المؤلفة لهذا الغرض من قديم الزمان ، وسالف العصر والأوان! ولقد زعم لى زاعم من المؤرخين أصحاب الاحصاء ، أن اجتماعها الأخير كان الاجتماع الـ ١١٤١٩٣٢٢٩٠٠٤٩٢٢٦٩٣٥٨٩١٧٤ !

فترى هل آن أن ينجح المسعى ، وتحط الشركة من أثمان الماء ، فقد مضى على سكان القاهرة ستون عاماً ، وستون عاماً غير قليل ، وهم يغصون بماء النيل . وكأن الشاعر كان ينظر بلحظ الغيب إلى القاهريين وما يعانون من شركة المياه حين قال :

نفر إلى الشراب إذا غصصنا فكيف إذا غصصنا بالشراب ؟

ترى هل ينجح السعى هذه المرة ، ويحق لساكن القاهرة أن يتمثل بقول الشاعر :

فساغ لى الشراب وكنت قبلا أكاد أغص بالماء الفرات ؟

يا قومنا : أقسم لكم بالله تعالى ، غير حانث ولا آثم ، إن الشركة

ليست تأتينا بالماء من إفيان ، ولا من إكس ليبان ، ولا من فيشى ولا من بلاد اليابان حتى يلتمس لها العذر ، بنفقات النقل فى البر والبحر ، وأجور الحزم واللف والتعبئة والصف ، والتأمين خوف الغرق والحريق ، وما عسى أن يدركه من العطب فى أثناء الطريق . وناهيكم بحساب ما قد يكسد فى الأسواق منه ، وما قد يبور فى المتاجر بانصراف الهواة عنه . ومن يدرى فلربما ظهرت « ماركة » ماء جديد ، « موديل » سنة ١٩٣٨ أو ١٩٣٩ فيها من المزايا ، ليس فى هذا الماء ، فى رى العطاش وبل صدى الظماء !

ليست تجىء بشىء من هذا حتى تغلو هذا الغلو فى الأسعار ، توقياً للنفقات وتوقياً للخسار . إنما تدفع إلينا الماء من نيلنا الذى يشق مدننا ، والذى يجرى بين أيدينا ، والذى طالما طغى وزاد ، حتى أغرق البلاد ، وأهلك العباد وأتى على اليابسة والخضراء ، وألقى بربات الخدور إلى متن العراء . بل إن من يرى متدفقة فى دمياط أو فى رشيد ، ليحسب أنه ماض لرى العالم القديم والعالم الجديد . ونراه يغذو فى شمالنا وجنوبنا ألف ترعة ، فاذا جاز بنا ضيقت الشركة ذرعه ، وباعتنا ماءه « بالشربة » والجرعة ! حتى أصبحنا ، ونحن نغدو على حفتيه ونروح ، نتناشد قول الشاعر :

يا سرحةَ الماء قد سدَّت موارده أما إليك طريقٌ غير مسدود ؟

حقاً يا سيدتى الشركة ، لقد سامتنا « عداداتك » رهقاً وعذاباً ،

وجرعتنا من نيلنا علقماً وصاباً ، وكان من قبل سكراً مذاباً ، وكان شهداً وجلاباً ، لقد ساغ ورداً وحلا شراباً !

حقاً يا سيدتى الشركة ، إنك لتروقين الماء ولكنك تعكرين النفوس ، وتملئين الآنية ولكنك تخلين الجيوب حتى من الفلوس !

يا سبحان الله ، يا شركة ! تعطيننا الماء وتقتضين الذهب ، ولو كان سالنا نيلا لجف يا شركة من كثرة النزع ونضب !

إرحمينا ، يا شركة ، واعملى معنا بالمثل الذى قالته العامة من قديم الزمان : « الميه ماتفوتنش على عطشان » !

وبعد ، فعندى ، يا سيدتى الشركة ، أكثر من هذا . ولكن فى فمى ماء وهل ينطق من فى فيه ماء ؟

ونرجع إلى سياقة الحديث فنقول : أما آن لوزارة الأشغال أن تنجز الوعود ، ولشركة المياه أن تعدل عن دلها المعهود ، فتترفق فى ثمن الماء ، وتخفف عن كواهلنا ما يهددها من الأعباء ، فقد اعترانا الداء من ناحية الدواء . ولله در شاعر الغبراء :

من غصّ داوى بشرب الماء غصّته
فكيف حالُ الذى قد غص بالماء ؟

فان فعلت ، وإلا فقد طابت الهجرة إلى البرارى والقفار ، لنتعوض عن ماء النيل ماء الآبار والأمطار . وإنى لأخشى أن تلاحقنا الشركة هناك ، وتبسط علينا سوط الاشتراك ، بعد أن تحوز ماء

الغمام فى مواسير ، وتختم بالعداد على كل بير . فالشركة وراءنا ولو تعلقنا بالسحاب ، أو تدسسنا فى التراب ، وأمرنا إلى من له المرجع والمآب !

أرجو أن تنصفينا ، يا شركة المياه ، وتفرجى عنا من هـــذا الضيق ، وإلا لاضطررنا إلى أن ندعوك « شركة تنشيف الريق » والسلام .

* * *



فهـــــرس

فهـــــرس

صفحة

مكتبة الأسرة



بسعر رمزى مائة وخمسون قرشاً

بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٨

مطابع

الهيئة المصرية العامة للكتاب

«كاتب النيل»

كان عبد العزيز البشرى رحمه الله أباً باراً وأخاً وفياً وصديقاً حميماً. وكان من أجل هذا كله محبباً إلى النفوس أثيراً فى القلوب، عزيزاً على الأهل والأصدقاء جميعاً وقد كان من القلة القليلة النادرة التى امتازت بخفة الروح وعذوبة النفس ورقة الشمائل.

فعبد العزيز أشد كتابنا المعاصرين عكوفاً على حياتنا المصرية وعلى حياة القاهرة خاصة، وعلى حياة الطبقة الوسطى من أهل القاهرة بنوع أخص.

فاقرأ «قطوفه» هذه فسترى فى كل فصل من فصولها مرآة مصقولة صافية صادقة أدق الصدق.

طه حسين